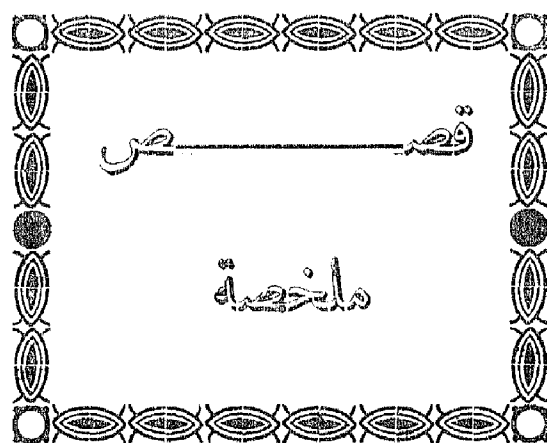




قوى كالموت !

Fort Comme la Mort

لجى دى موباسان

جى دى موباسان من أشهر القصاصين الفرنسيين وهو معروف لدى القراء فى مصر وقد ترجم له الكثير من القصص القصيرة الشائقة . وهو من زعماء المذهب الواقعى (الريالسم) . وفنه تصوير دقيق حى للفرائز والشهوات والاخلاق البارزة الشائقة التى تميز بيئة عن أخرى وعنصرأ عن سواه . ولأسكن هذه الظواهر لم تكن تكن وحدها مادة فنه فقد ارتفع موباسان فى قصصه الكبيرة الى ذروة الفن التحليلى النفسانى وتناول بالدرس والوصف أزمت الوجدان المضطربة المعقدة . وهذا الجانب من فنه يكاد يكون مجهولا فى مصر وهو الذى يبرز بروز ناصعا فى القصة التى نلخصها اليوم والى كتبها موباسان كما ينظم شاعر موهوب قصيدة من الشعر الخالص

فنان كبير القلب سامى الوجدان . لطيف العشر ، ولوع بالهواطف الملتهبة الصادقة ، والأحلام العذبة الرائعة يبحث عن الجمال وتتقضى حياته فى عبادته . وتنصرف جهوده الى ابرازه للناس فى ملح فنية هى غاية ما يطمح اليه من عزاء . مديد القامة فى رجولة مكتملة ساحرة . تسبح فى عينيهِ الفاترتين خيالات مبهمه فتستسر أجفانه كأنما قد أخذته سنة الكرى . ينظر اليك فتنفذ نظرتة الى صميم قلبك وتتملك الى عالم مجهول فيه من المفاتن ما يقصر عقلك العادى عن تصويره هو كهل وخط الشيب رأسه ولكن روحه الساذجة روح طفل تطل على الحياة فى فضول دائم التجدد

ذلك هو المصور النابغة أوليفيه برتان الذى طبقت شهرته باريس وأقبلت عليه العقائل النبيلات يتبارين فى أيمن تظفر بصورة لها من صنع يده

وكان خاوى النفس الامن حب فنه وحب الجمال . لم يفكر بحرى صفاءه احساس دافق عميق . ولم يعرف فواده حتى الساعة ذلك التعلق بماطقة فذة واحدة يستلهمها القوى المعنوية ويهرع اليها ساعة الانتاج كعظم الفنانين

وعاش بين رفاقه المصورين والنسوة الجميلات من الخليعات أو أنصافهن اللواتى كن يهرضن أمامه أجسامهن نماذج للنصوير مقابل بضعة فرنكات فانطوى على نفسه وأودع شعوره الفياض جوهر قلبه ومضى فى سبيله يعمل بجهد واجتهاد حتى فاز بالمجد الذى طالما تعلل به أيام الأمل والصبا

وكاد وجدانه يستقر ويرضى بهذا اللون من الحياة يلهم أمام عينيه متشابهاً مكداً مضجراً لولا أنه دعى ذات يوم الى قصر الكونت دى جيلروا وعهد اليه بتصوير الكونتس قرينته احدى فانات باريس

وكانت امرأة على جانب عظيم من الجمال . رقيقة الاحساس . رضية الخلق طيبة سمجة ، فى عينيها الهادئين حزن كمين وفى حديثها الخلاب ضرب من اليأس المتواكل وعدم الاحتفال

كانت ثرية مرفهة ، موفورة العزة ، أبة شائخة . يحف بها المعجبون ، وتتناثر عليها آيات الثناء من كل صوب . ألا أن أوليفيه شعر لأول وهلة بما يجول فى نفسها من لواجم خفية . وما يضطرم فيها من عواطف لا تجد لها أى منصرف فترتد ، وقد ازداد اضطرابها وسطم بريقها من خلال العيون الحزينة الوسنانة الهادئة

رسم لها المصور صورة بديعة أقر الجميع أنها خير عمل فى تمثيل فيه شخصية الكونتس بأبلى مظاهرها . وجعل يتردد على القصر وتوثقت بينه وبين المرأة عرى الصداقة وأحس على دهش منه أن هناك قوة خارقة تدفعه لمشاهدة الكونتس والجلوس اليها والاستمتاع بحديثها والتملى من سحر عينيها . وشعر بأنه يزداد بالقرب منها قوة على قوة وان حاسته الفنية تستدق وتنعم ، ونظرتة الى الحياة تنهذب وتسمو وتنفذ الى الأعماق

فاستهذب الجو الجديد الذى حبه به المقادير كنعمة غير منتظرة وأشربة وجدانه وراح يقف عليه ذل ماوسمته أحلامه من سعادة وهناء كان ينيل اليه أنه لم يمش حتى هذه الساعة وأن ماصادفه فى طريقه من جمال لم يكن غير وهم بددته هذه الحقيقة الفاتنة

وكيف لا تذهب بلبه فتنة هذه المرأة وهو الذى قضى شبابه يبحث عن المرأة السكاملة ، المرأة التى تجمع فى اطواء روحها فضائل الأنوثة من ملاحظة وطيبة ورقة ، وفضائل الرجولة من استقامة ونزاهة وصراحة وإخلاص . وها هو الآن وقد أصاب الهدف وعثر على الضالة المبتغاة يلقي عصا الترحال ويقنع ويحاول بكل ما أوتى من جاذبية الفن والرجولة والصدق ان يلبس فى كيان تلك المرأة العاطفة العظيمة التى ظلت تعذبه السنين الطوال

وكان زوج السكونتس رجلاً ارسقراطياً جامداً الحس ، بارد المزاج . يهتم لشؤون السياسية وحدها ولا يميز زوجه التفاتاً . وهو على جموده وخطرسه وعبادته التقاليد وذهنه الضيق المحدود يضيف الى ذلك أنانية بشعة تنفر منه قلب امرأته الولوع بتبادل الفكر والاحساس

كانت هناك هوة سحيقة بين الزوجة والزوج رغم كلا منهما على العيش بمعزل عن الآخر وتسمى فى فؤاد السكونتس تلك العواطف الدفينة التى تغذى الأنوثة منها وتقوم عليها ولا تزدهر الا بها

وعبثاً حاولت الزوجة أن تجد فرجة تشرف منها على نفس قرينها . فالزواج فى نظره كان محض شركة يفرضها المجتمع وتأمر بها التقاليد . أما الاتصال النفسانى والاندماج الفكرى والتلاؤم الخلقى فأمر ما كان يمكن أن يخطر على بال السكونتس وآخر ما أصبحت السكونتس ترجوه من حياة البيت ونظام الاسرة على أنها لم تكن لتبدى لزوجها أى كره أو اعراض ولم تكن لتتبرم به أو ترفض تأدية ما عليها من واجبات اذ المجتمع القائم على ستر الفضائح وخنقها فى المهد والتظاهر بالتفاهم والوفاق كان يحرم عليها أن تنتفض وتتوروت وتحطم أغلالها وتتطلق وكانت لها ابنة تدعى آنيث تحبها الحب كله . وتحشى أن هى تمردت وتركت

البيت أن تمتزج منها فلذتها الوحيدة وأن يرمقها الناس بعين الاشهرزاز والسجود
وهكذا احتملت جفاء زوجها ، وانصرافه عنها وبدت في الحفلات وكأنها
المرأة الممتعة الراضية التي لا تنعم أبصارها على شيء إلا وتفوز به على الفور
ولكن أوليفيه لم يخذع بهذا المظهر واستطاع بصره الدقيق أن يكتنه سره
تلك الروح الخائنة وأن يسمح عنها الزيوف ويخرج بها من حظيرة الاوضاع
الاجتماعية الملفقة إلى فسحات الحرية والنعم

طارحها الهوى ذات يوم فنار ثائرها واستنكرت منه هذه الجراءة وكادت
تغلق في وجهه أبواب قصرها ولكن الفنان كان رحب الصدر جم الاحساس عذب
العبارة مدلها حيران تبدو على وجهه أمارات الضنى ويرتسم على تقاطيعه ذلك
الاسم العميق الذي كانت تحسه المرأة ايضاً في نفسها
رأته جاثيا عند قدميها يتوسل ويستجدى ويلثم أطراف ثوبها ويدعوها
لانتقاذه من الرهدة التي لا بد إن صدفت عنه أن يتردى فيها
واغرورقت عيناه بالدموع وجعل يفيض عليها بما حشده الايام في قلبه من
كنوز الاحساس ويلوح لها بالحياة المرحية الطليقة التي تبسم لهما آفاقها عن بعد
ويصور لها ذلك العالم الجديد عالم النسيان والشعر الذي لا يقاس بكل ما في
قصرها من مباهاج الترف ومناعم التحضر الباطلة
وكان بارعا في تصويره صادقا في نبرات صوته ساحرا في لون وجهه الشاحب
الحزين

فأشفقت عليه ووقع من نفسها ألمه وعز عليها أن ترسل اليها المقادير
الرحيمة كل هذا الحب ثم تعرض عنه وتدعه لغيرها من النساء
وجاشت فيها العواامل المستكنة التي حال المجتمع بينها وبين النماء . فتصاعدت
بغته من حنايا ضلوعها وغمرت فم تستطع المقاومة ولم تر فيها أي جدوى فأقبلت
على المصور واحتضنته بكتفها ذراعيها وقبلته قبله طويلة نائمة . فخيّل الى الفنان
عندئذ أن الطبيعة بأسرها قد عننت له . وان الحلم والحقيقة . الفن والحياة . المرأة

والمجد . كل هذه الروائع أصبحت له . ممثلة أبلغ تمثيل وأتمه في عيني هذه المخلوقة
الفاتنة التي لم يكن ليتصور منذ بضعة أشهر فقط أن في وسعه — وهو الرجل
الشريد البسيط — أن يرفع إليها بصره لحظة واحدة !

وكان حباً أشبه بالفرار منه بالحب . فرار من الواجبات الاجتماعية المرهقة .
فرار من الكذب والمداهنة والرياء . محض صفاء روى في قلبين نزيهين طاهرين
يفزع كل منهما الى الآخر ، ويستكمل الواحد منهما نقصه الطبيعي في الآخر .
فاليفييه كان يستهبط وحي الفن من جمال حبيبته الكامل . ويستمد منها تلك
الركة الأنثوية الغريبة التي تضي على رسومه حلة أنيقة جديدة . والسكونتس
دى جيلروا كانت تحس في عشيقها ذلك التوق إلى الفناء في العاطفة والطموح الى
ابتداع مثل أعلى في الحياة . والاندماج في شخص الحبيب اندماجا تاما طالما
بحثت عنه في الرجال الذين يحتاطون بها فهادت بالخيبة المرة .

وكانت تزوره في منزله وتقضى اللحظات الطويلة في حجرة التصوير تتفحص
مولدات خياله وتبدى له عليها أدق الملاحظات وتنصح به بتجويد عمله ومراجعتها
وصقله مرات حتى يبلغ الاتقان حداً لازيادة بعده لمستزيد

وكانت سعيدة كل السعادة بهذا الرجل الشديد الاخلاص الذي يجمع مفاتيح
العالم جميعاً في وجه واحد هو وجهها ، وطيف مختار هو طيفها

ومكنته من نفسها عن طيبة خاطر واصطفهاها دور النساء جميعاً ملاذاً
لاحساسه والهاماً حياً شعر على التوالى بان حاجته اليه أصبحت كحاجته الى الهواء
والنور والغذاء

وتطور حبه واستحال عبادة حارة . عبادة الجمال المطلق ممثلاً في امرأة ممتازة
لم يد لها بين من عرف من الغواني أى شبيه

وكان أوليفييه كمعظم الفنانين أو جلهم مجنوناً بعبادة الجمال . لذلك أحب

السكونتس ، أحب فيها مادة وجوده ومادة فنه . أى الغرض الذى من أجله كافح
وفى سبيل الوصول اليه وامتلأ به يعيش !
على أنها مع سعادتها القصوى كانت تتألم أشد الألم لاضطرابها الى التويع
على زوجها ، واخفاء عواطفها ، والظهور بمظهر الزوجة الفاضلة ، وخديعة الأصدقاء
والصدىقات وخيانه حبيبها المعبود نفسه نزولاً على ما يأمر به الواجب الزوجى ...
ولسكنها كانت تحب . والمجتمع لا يرحم . ومصير ابنتها ومستقبلها يتطلب
منها الخضوع والرضا بالخديعة والذل

وأدرك منها ذلك أوليفييه فلم يحاول استئثارها على واجبات الأسرة والمجتمع
وقنع منها بسويغات لذة عابرة تمنحه إياها كما يمنح القضاء الرحيم الانسان بعض الهبات آنا
بعد آن . ولم يكن فى وسع المصور أن يحيا بعيداً عن يحب . كانت رؤيتها وحدها
كافية لتزويده بالطلاقة والمرح والنشاط وطرد شبح السهولة القاسى الذى كان
يتقدم اليه على مهل يحاول أن يستلب منه الجوهرة التى صاغها من دم قلبه وعزير
أحلامه وقوة الأمل المودعة فيه كخربة عاتية لا قبل له بمقاومتها

ومرت الأعوام وتلتها أعوام آخر والمرأة تزداد ولهاً والفنان يزداد تعلماً
وعلاقتهم تتوثق والضجر أبعد ما يكون عنهما والخلاف لا سبيل له الى قلوبهما
والحب يعبد لهما الطريق منبسطة رحبة كنهر صاف ماله انتهاء
وسما بهما الهوى الى أوج المودة الهادئة والصدقة الحلوة العابثة . وتبادل
الآراء والعواطف فى نشوة قريبة ساحرة

أصبح الحب راحة كبيرة . وداعة حاملة . تظهر وسكون . أشبه بالاتصال
الروحى بين الصوفى وربه

ولكن الأيام كانت تعمل فى الخفاء عملها . والسنون المتعاقبة المقبلة فى اثناد
كانت تحاول السطو عليها وتدمير البناء الرائع الذى شاده الحلم الجميل !

لمحت السكونتس فى مفرقها أول الشعرات البيض واختبلت إذ أبصرت فجأة
أول التجاعيد تكمن وتمدد فى زوايا فمها وعينيها

وكذلك أحس أوليفيه بالشيخوخة الطابطة تنوء عليه وتنسك ملاحمة وتشعل في رأسه الشيب وتمكاد تقوض جسمه الرشيق تقويضاً . ولكن حبه الحياة كان ما يزال يدوى في فؤاده ، وعبادته الجمال ما برحت مستولية عليه كما كانت أيام صباه ، وهل يستطيع فنان صادق أن يودع الشباب على هذه الصورة ، أو أن يتخلف ولو هنيهة عن تقديم ذاته للجمال قربانا أو أن يسمح للشيخوخة أن تستنذله وتغلق دونه أبواب النعم ؟

هذا العارض كان قوام شخصية أوليفيه وهو الذي دفع به الى حب الكونتس وهو الذي يحلق عليه الآن كلجنة ملازمة - فرأى أمامه الهوة المظلمة السحيقة شيئاً فشيئاً . . .

وكان أوليفيه قد عرف آنيث - ابنة الكونتس - فتاة صغيرة طائشة لاهية . وحنا عليها حمى الوالد على ولده ، وكانت الأم قد أرسلت بها الى إحدى المدارس وطلبت الحاقها بالفرقة الداخلية فظالت الفتاة هناك ثلاثة أعوام لم يرها في أثناءها أوليفيه

وفي ذات يوم وقد أخبر بأنها سوف تترك المدرسة وتعود الى البيت فتسح الباب بغتة ودخلت فتاة آية في الحسن . بسامة الثغر وضاحية الجبين ، طليقة الحيا ، مشرقة مرحة لهوياً عليها من نضارة الصبا ما يسترعى البصر ويأخذ بهجامع القلوب أقبلت على المصور وحيته أحسن تحية وجعلت تغدو وتروح . تقفز وتتحدث خفيفة النفس ، مرنة الحركات . بريئة ساذجة يتدفق فيها دم متحمس فوار وتخلق حولها جواً من الثقة والاعتداد والطرب

حدق اليها أوليفيه وإذا هي صورة لأمها أيام كانت شابة . صورة عجيبة ومندهلة . الفم القرمزي الصغير هو فم الوالدة . والصدر العريض صدرها . والجبين الناصع جبينها والصوت صوتها ، والعيون الوسنانة الحاملة هي تلك العيون ولكن لم تعكرها بعدلا الاختبارات المرة ولا الجريمة ، ولا القنوط ولا الشجن . أحس الفنان أن حياة عشيقته وحياته . شبابها وشبابه . يتجددان أو قد تجددوا بعناجأة

في هذه المخلوقة المقبلة على الدنيا بقدم راسخة وعزم ثابت وضحكة رنانة لا تحفل
بالسكابة والتفكير ولا تقيم وزناً لأي شيء

دب فيه الذعر وسرت في جسمه رعدة وطفق يتابعها النظر ويند كر
بالرغم منه ساعات حبه الأولى . وينقل الطرف من الفتاة إلى أمها وهو لفرط
الشبه بينهما يكاد يخلط بين ماضيه وحاضره ولا يدري أيهما الحقيقة وأيهما
المحبوب وأيهما أدعى إلى العبادة وأجدر بها

راجع نفسه وانكشف وجعل ينحني على قلبه باللائمة ويفكر في خيلته وفيما
متعته من لذائذ ومسررات . وفي هدوئها الحال المتواضع الكسير

هدوئها ! . . بالخفية ! انه لاشبه بالركود الآسن منه بالهدوء المكتمل
الجذاب . . أين ذلك الهدوء من هذه الحياة الجياشة المصطنعة التي تجرف في غير
مبالاة كل ما يعترضها وتصوب أبصارها بعيداً . هناك حيث المستقبل الزاهر يسطم
عليه الشباب ويحميه !

وشاع الاضطراب في نفس أوليفيه وتنازعت عراجل الحيرة والقلق والخوف
وحاول ان يفر من هذا البيت . أن يختفي ولو بضعة أيام . أن يخلو إلى فؤاده
الجاحد وبحاسبه حساباً عسيراً

ولكن عبثاً حاول . فرسم الفتاة كان لا يبرح خيلته . وضحكاتها لا تفتأ
ترن في أذنيه . وامتلاء جسدها الغض يلوح أمامه فيقض مضجعه ويبتلي ظلمة
لياليه بالخيالات المحرمة المنكرة

لم يجده النضال نفعاً . عاد إلى منزل عشيقته . واسترسل في خلطة الفتاة .
وألف الخروج معها والتحدث إليها . ومشاهدة الملاحى بالقرب منها . ومرافقتها
في المنزهات والمفاخرة والزهو بها وهي مستندة إلى ذراعه والابصار ترمقها باعجاب
وانصرف عن الوالدة إلى ابنتها يكذب على الأولى ويصطنع البساطة والبرامة

والأبوة ليظفر بنزهة أو جلسة أو سمر تافه مع الثانية
نورط في احساسه وفقد ملكة الحكم على أعماله وعاد لا يابه للمواعيد التي
تضربها له الأم ولا لحزنها الطاري . ولا ليأسها وحسرتها . وشعرت الكونتيس

بالخطر يهدد حبها ويهدد ابنتها على السواء . وكبر عليها ان تشيخ فلا تجد فيمن أحبته ملجأ ونصيراً . فكانت اذ تلفها الوحدة تبكي وتتأوى حنقاً وكداً . تبكي صباها الضائع ونسكبة هواها وحنون عشيقها ثم تعاودها القوى فتهب من غفلتها وقد اعتزمت ان تفرق بين ابنتها وحبيلها مهما كلفها الأمر من عذاب . على أنها كانت لشدة عطفها عليه وتقديرها صدق عواطفه ، لا تبغضه بل ترأف به وترثي لحاله وتمنى ان تنقذه مما يعانيه من حيرة وألم

أما هو فقد بدأ يحب الفتاة حباً عاصفاً غالباً مبرحاً دون أن يصارح نفسه جهره بهواه . ودون أن يتورع عن مقابلة الام . ودون أن يشير في حضرتها الى ما قد يميظ عن دخيلة قلبه اللثام . ولكنها كانت تفهم كل شيء وتصفح عن كل شيء وتظن أنها لو تمكنت من ابعاد ابنتها أو أبعاد أوليفيه فقد يصفو لها الجو ويعقب العاصفة سكون رائق أفقن وأحلى من السكون القديم . . .

أقامت الحفلات وعرفت ابنتها الى بعض الفتيان النبلاء واختارت لها من بينهم زوجاً هو المركيزدى فرندال . فتى فى مقتبل العمر لا يمتاز عن اقرانه بشيء ثريا عاطلاً يقضى معظم أوقاته فى الاندية والصالونات . ولم يكد أوليفيه يدرك هذا حتى التهب فى صدره غرامه الجديد وشعر بالغيرة الفتاكه تنهش قلبه وبالسكره يتمدد فى كيانه كلما وقعت عيناه على المركيز

أبغض هذا الفتى بكل ما فيه من عجز الشيخوخة وقسوتها . أراد أن يمنع هذا الزواج فجعل يحط من شأن المركيز فى نظر الوالدة . ويستنكر كيف ترضى بمثله بعلاً لابنتها

واستولى عليه ضرب من الشلل الذهنى الفظيع . فكف عن التصوير . ولاذ بالتأمل والحلم

وهال السكونتس مارأته منه . أبصرته يشحب على مر الأيام . وينفر من الجميع ، ويغلظ فى القول وتعتريه بعض اللاحظات شبه غيبوبة فيظل هنيهة مسبل الاجفان مطأطأ الرأس تنقبض عضلات وجهه وتكاد عيناه تجفشان بالبكاء

ولكنه كان يطمح في قرارة نفسه الى تخليد الجمال الذى يعيش من أجله والذى يشهده كل يوم متجددا حياً فى شخص آنيث والذى فى سبيله خان المرأة التى أخلصت له أعظم اخلاص . أراد ان يفوز من الصبية ولو بهمل ففى ينقع به غلاته . فدعاها إلى بيته وثبت على القاعدة لوحته واعزم أن يخلق من الفتاة صورة يودع فيها ما ساء حبه ويسميا (الحلم) . . .

أقبلت الصبية مصحوبة بامها وشرع الفنان فى الرسم منهوك الأعصاب خائر القوى مضطرب اليد . يتلفت حذراً لئلا تلاحظ الفتاة ما هو عليه . وكاد يفضل سبيله ويراكم الألوان فى غير حذق ويفتضح . بل كاد يصرخ ألما ويبكي فأسرعت الام وأشارت على ابنتها بالخروج لحظة ثم تقدمت الى حبيبها وجذبتة اليها وحدثت فيه وكاشفته بالحقيقة كلها

قالت له انه يحب ابنتها . وأن عليه أن يهود الى رشده ، ولا ينسى الماضى . ويشفق على حياته ومستقبل الصبية ويبتعد أو يرحل أو يحتجب مبقات ما يتم زواجها فتهاوى الرجل وتداعت البقية الباقية من عزيمته واعترف لعشيقته بأنه يحب ابنتها لأنه يحبها هى وأن مقياس حبه لها هو هذا الغرام المحرم الذى يشعر به نحو فتاتها . واستحلفها بكل عزيز لديها ألا تحكم عليه حكما صارما وألا تحول بينه وبين رؤية آنيث . وأن تمنع زواجها بضعة أشهر أيضاً بل بضعة أسابيع ربما يقضى الله أمراً كان مفعولاً . . . ولكن المرأة أصرت على نصحتها وعادت تلتمس اليه ألا يتهور وأن يناشد عقله الحكمة والزناة والأيوامل فى ارجاء الزواج مخافة أن يستفحل الخطب وتدرك الفتاة الحقيقة وتلغظ بالحادث المخجل السنة الناس . . .

وكانت السكونتس فى كل ماقالته تصدر عباراتها عن نفس أبية شماء لا تعرف الكراهية أو الاشمئزاز بل تواجه الواقع فى غير تبرم أو سخط ، وتفهم حق الفهم تقلبات الطبيعة ونزعات الفطرة وأحكام القلب البشرى . وانصرفت وفتاتها

بعد ان وعدھا المصور خيراً ، ولكن آذيت لم تلبث أن غادرت البيت حتى عاد
شيطانها يحثم على صدر أو ليفيه ويصليه من المذاب . تفاقم شعوره بالوحدة
واتسع الفراغ في فؤاده ، واستعرض حياته فالفها خاوية من كل سعادة ، مظلمة
الا من هذا الضياء البعيد الثمين . فكاد يحن جنونه وأخذ يهذي هذيان شوم .
وأحس أن الأم التي طالما أحبها في الماضي هي الآن العقبة السكود . فلم يطق .
لم يطق النزول على أرادتها وإنكار حبه كما نصحت له . فارتدى معافه وتناول
قبعته وانطلق

دخل البهو وكان غاصا بالمدعويين فملقته السكونتس بهدوئها العادي وانتبذت
به مكاناً قصياً

دار بعينه باحثاً عن آذيت مرتقباً بجيشها ، مرهفاً أذنيه لوقع خطواتها
ثم جاءت الفتاة فحياها وسمع منها أن زواجها سيتم وأنها هاتئة بهر وسها وافرة
الثقة بالمستقبل . ترجو عيشاً مديداً وراحة ومسرة
وذهبت فأحس أن قلبه يتمزق تمزيقاً وعاد إلى الأم يلتمس منها ارجاء الزواج
ولكنها قطبت حاجبيها وفي لهجة جادة حازمة نزيهة طلبت اليه ان يكف عن
زيارتها ردحاً من الزمن وألا يرجع إلا بعد الزواج فتداعت قواه وارتجف واصططكت
مراشفه وكاد يغمى عليه ولكنه ثاب إلى رشده نفشيت السكونتس ان يعاوده
ضعفه فأمرته أن يرحل . أن يخرج حالا وإلا ساءت العقبي
وأظلمت الدنيا في عينيه وشعر بأنه يطرد نفرج مترنحا يتعثر بأثاث الغرف
والدم يغشى بصره ودقات قلبه تخنقه وما أن استقبله الشارع حتى انطلق
هائما على وجهه لا يدري أن يسير وإلى أين يذهب تائها شريداً . ينتحب ويبكي
بكاء الأطفال ! وفقد الشعور بأنه يمشى وسط الجموع وان الشوارع حافلة بالسابلة
وأنه يجب ان يذتبه ويستفيق

وفجأة صرخ أوليفيه صوتاً هائلاً ومال على نفسه ثم وقع على الارض
لا يعي على شيء وقد صدمته عربة كبيرة ومرت عليه عجالاتها فأخذت للفور
صرخته وتركته مخضباً بالدماء

اخطرت السكونتس بما وقع فاخترت واستحوذ عليها الرعب واسرعت اليه

والدموع تترقرق من حدقاتها وما أن وطئت قدمها عتبة الغرفة حتى شاهدت الرجل الذى كانت تعبده مسجى أمامها يلهث ويرفر زفرات الحى أصفر اللون ضامر التقاطيع غائر الوجنت على أبأس ما يمكن أن يكون انسان فهاها ما فعلت ونسبت السكارثة اليها . الى ابعاده عن بيتها . الى طرده دون رحمة وتقلب الجريح على فراشه والتقت أبصاره بأبصار حبيبته القديمة . وتفجرت عيناه بالمعبرات فاقتربت منه فاخذ يدها بين يديه وقبلها وأفضى اليها بأنه لم يكن مسؤولاً عن عواطفه . وأن الطبيعة وحدها هى الآمرة . وأن القدر الغادر هو الذى أراد ما كان

وكان قد جمع رسائلها الغرامية فاخرجها وناولها إياها ورجاها أن تحرقها هنا ... فى الموقدة ... حفظاً لسمعتها . وإلحاداً لحياتها كلها !

فاطعت وألقت بها فى النار والتفتت الى الطبيب فقال هذا انه راحل وأوصى بالمحى . بممرضة فرفضت السكونتس وأجابت أنها ستبقى بجوار صديقها حتى مطلع الفجر وشاع السكون فى الغرفة ولم يعد يسمع فيها غير أجيج النار فى الموقدة وزفرات الجريح المتقطعة

والتمهت جمره من الجمرات فاستضاء بخته حيا أو ليحييه فانحنى السكونتس عليه ومدت ذراعها ولمست كفه المتدلية وإذا هى رخوة باردة برودة الثلج . فتمهضت والذعر لآ قلبها وحدثت اليه فابصرت حبيبها ساكناً هامداً مستريحاً . يتسم ابتسامة عذبة صافية كأنما هو سعيد بأنه قد عاش وتآلم ومات لامن أجلها ولا من أجل ابتها بل فى سبيل الحب والجمال والفن

فاجعة البحيرة

8

Tragedie sur le lac

لبلاسكو ايبانيز

بلاسكو ايبانيز من اشهر كتاب اسبانيا . يمثل روح بلاده ونفسيته
ابلق تمثيل . فأسلوبه قوى متدفق . ولفه بالاسلوب لا يصرفه عن
دراسة الحياة دراسة صحيحة عميقة . فهو يختار اشخاصه من صميم
الايوساط الاسبانية ويرسم لنا اخلاقهم وعاداتهم ونزعاتهم الفطرية
القريبة الى الطبيعة البعيدة عن جبن اهل المدن . وابطال القصة التي
تلخصها اليوم من القرويين الاقوياء الذين يصارعون الغرائز
وتصارعهم فاما ان يفوزوا عليها واما ان ترديهم . وقد قال الناقد
الالماني ارنست روبر كورتيروس ان هذه القصة هي مأساة الخير
والشر وانها ابداع ما اخرجته قريحة بلاسكو ايبانيز

كان الجد بالوما شيخاً . صلب العود . ابيض الشعر . جليلاً ، في عينيه الواسعتين
أنفة وشموخ . وفي حديثه قوة . وفي مشيته عزة وثبات وثقة
عاش في قرية تدعى بلمار بضواحي فلنسيا وتزوج فرزق غلاماً تزوج هو الآخر
ثم توفيت قريبته وخلفت له طفلاً رائع الجمال أسماه تونيه
لم تمر بحياة هؤلاء الناس أية حادثة . ولم يشهر أحد منهم لا بالحزن العميق
ولا بالألم الشديد ولا بالفرح غير العادى

كانوا يشاركون الطبيعة في صفاتها وهذونها وعدم احتفالها وسعيها المتواصل في
سبيل تجديد الحياة وكانوا أقوياء مثلها ذوى غرائز حرة وأفكار محدودة ضيقة
واحساسات جافة ورزاة وجهامة وصمت ونفور ولم يكن أحب اليهم من العمل
المطرد . والجهد الشاق والغذاء الطيب والنوم الهنىء بعد كد النهار المضى . وكانوا

محافظين جد المحافظة . مؤمنين أشد الايمان . غيورين على أعراسهم يؤثرون الموت على الفضيحة . وأبلغ ما تتمثل أخلاقهم في الجدد بالوما . فهو حريص على شرف الاسرة كل الحرص . يذود عنها ويرعاها ويدافع عن سمعتها ويقيم من نفسه المثل الصالح في الاستقامة والشهامة والنبيل . وكان نفوراً بشرف أسرته . مزهواً بماضيها النقي . يباهى بعاداتها وتقاليدها ولا يغفر الاساءة أبداً

أما ابنه فكان على غراره ما خلا بعض الفتور وشيئاً من التواكل والضعف ولم تكن للجد وابنه مهنة غير الصيد ، يستقيم الشيخ والفجر المنبثق ثم يوقظ ولده ويذهب الرجلان الى البحيرة المجاورة بصيدان الطيور والاسماك ويحملانها حتى المدينة فيبيعانها هناك

وكان الجدد يعبد البحيرة ويرى فيها علة حياته ومصدر وجوده وينبوع أفراحه لا يقدس في العالم بعد الله غيرها ولا يشعر بالعظمة والسرور الا بجوارها أما سعادته فكانت في الصيد وفي الصيد وحده . لا يهتف بمهنة أسمى من هذه المهنة أو أجدى نفعاً ، وكما احترف أسلافه الصيد كذلك يحترفه هو وكذلك يجب أن تحترفه أفراد الاسرة جميعاً

إلا أن حفيده كان على نقيضه تماماً . فقد نشأ تونيه يحقر الصيد والصيداين يستخر منهم ويهزأ بساعات العمل الطويلة التي يقضونها عند البحيرة صامتين خاشعين وكان عابثاً مستهتراً كسولاً أولع ما يكون بالتأمل الطويل . والحلم المستمر . ونوم الضحى والأكل الطيب والانصراف عن كل عمل مادامت بقربه عيون جميلة وجبهة وضاحة وفم مبتسم ...

شب تونيه وفي نفسه إحساس عميق بجماله يدفعه إلى الاستمتاع بالحياة والاعراض عما يورث الألم والتعب والمشقات

وكأنه كان يشعر ان الجماله من الحقوق ما ليس للآخرين وأن الطبيعة قد حبتة بنعمة خاصة وانه يجب ان يميز عن جده الصارم القاسى وعن أبيه العامل المجهد وعن اهل القرية البله المساكين

وانقضت سنو حدائته تارة في الصيد والفلاحة صحبة جده أو أبيه ، واخرى

في شوارع القرية يستوقف الغادات العابرات فيحادثهن ويظهرى بهماهن ويهرهن
بمليح النسكات ويخاطب الباهن بسحر منطقته وفتنة حياه
وكن جميعاً معجبات به يتسابقن إلى نيل رضاه ويتبارين في أيهن تفوز منه
بنظرة أو ضحكة أو حديث بسيط
وكان يتعالى عليهن . ويتهمهن . ولا هم له إلا الشعور بساطنانه على الأفئدة
ووقع جماله في النفوس

ولطالما حلق في البحيرة فشاهد في مرآتها وجهه الصبوح المستدير . وعينه
السوداوين الخبيثتين وأنفه المستقيم وفمه الدقيق وشعره المتهدل المجعد يكل جبينه
المشرق العريض . فكان يتسم فرحاً وغبطة ويروح في شبه نشوة تشججه على
التدادي في السكسل والاستهتار

وكان الجد يلحظ عليه هذا فيزجره وينهره ويهره محتداً ساخطاً مستشيطاً
مذكراً إياه بواجباته . مستحثاً فيه بواعث الهمة . مصوراً له سعادة العمل والجد
وكيف أنها فخر الانسان وسلواه . وأن من تدوقها لا بد معرض عما سواها إذا المرأة
وفتنها . والشباب ونزقه والجمالة وما تغري به . كل هذه الاشياء باطلة . أما الأسرة
فتبقى . وأما العمل فقدور لا مفر منه . وأما البحيرة وكنوزها فأبدية خالدة !
ولكن تونيه كان يستمع الى حديث جده ثم لا يلبث أن يبصر حسناء عابرة
حتى ينساه ويهوى الى الأعيه غير آبه لشيء .

وكانت تسكن بجوارهم بائعة سمك وكان لهذه البائعة فتاة تدعى نيليتا . بارعة
الحسن على ذكاء خارق . يشوبه السكر والدهاء

هذه الفتاة هي التي استطاعت ان تستولى على قلب تونيه . وتفوز على أترابها
وتزهو بمن اصطفاها قلبها حبيباً لها

وكانت فقيرة تشتغل بائعة سمك كأماها . ولكن الطموح وغريزة التطلع
الى العلا . وعبادة الترف والولع بالثروة والمال . كل هذه العوامل كانت ترقد
في نفسها وتخلق فيها ضرباً من اللؤم والخسة والجساسة والسكرياء .

وكانت بضاعتها لا تصادف رواجاً وتشعر بالجوع ممزق أمهاها حين تأتي
الى منزل تونيه وتقبع في الزواية مطأطئة ساكنة بائسة فتأخذ الشفقة عليها

فيهرع الى جوف الدار ويأتمها بخبز ولحم يقدمه اليها وهو يتسم فتختطفه من يده اختطافا وتاتهمه وعيونها الساحرة تحديق فيه تحديق شكر ووله وتقديس ! وكانت أشبه بدمية فانتة منها بفتاة بائسة ، طويلة القامة ، ناصعة البشرة ، سواد الشعر ناعسة الاجفان ، تسير بخطى مسرعة فيتلوى جسمها الغض فيرتجف تونيه ويهيج ويهلع كأنما هو أمام حية تسعى ولم يسكن أحب الى نيليتا من الخروج الى النزهة صحبة تونيه . تتأبط ذراعه وتسايه ضاحكة عابثة وتلتفت عليها ترى امرأة أو فتاة تشهد هذا النصر العظيم وكم كانت لهما جولات في الغابة المجاورة . تلفهما الأغصان وتهدل عليهما أوراق الشجر ونيليتا تققه وتونيه يتأمل جمالها في صمت وحلم إلا أنه كان قويا يحس سلطان هذه المخلوقة على فؤاده فيغالب نفسه ويتبرم بها وينصرف عن الفتاة بضعة أيام فتتفر وتحتجب يوما ثم تعود اليه متوسلة مسترحمة وشعر الفقى أنها خطر عليه . وانه قد يضعف فتزل به القدم فحاول ان يقصصها ولسكنها تشبثت به ولجت في حبه وتدلعت ، فخشى أن يمتيها بالوعود الكاذبة واعتزم ألا يراها وألا يظل في البيت لحظة اذا ما وفدت اليه تعذبت نيليتا وكاشفت الشاب بما يكنه قلبها واستحلفت بكل عزيز عليه أن يقدر احساسها والا يبتليها بالحسرة واليأس والخيبة العميقة المرة . واسكن تونيه لم يأبه لها وكانت غرائز الحرية قد استيقظت فيه وتمكنت من نفسه فأخذ ينظر الى القرية نظرة سأم وضجر والى أهلها نظرة سخرية وازدراء . والى حياته الراكدة نظرة لوعة وبغض وفي ذات يوم وقد استولت عليه هذه العوامل صارح والده وجده برغبته في الالتحاق بالجيش فذعرت الفتاة واختبات وأعوات ، ولكن الشاب لم يحفل بها وودعها ثم ودع أسرته أيضا ورحل رحل تونيه وصورة نيليتا ماتزال ماثلة في خياله ، وحبها الشديد يطارد ، وصرخاتها لا تنفك تدوى في أذنه ، وقلبه يحن اليها ويأسف على الماضي العذب الجميل !

أفاقت الفتاة من غفلتها وأدركت حقيقة الأمر وأيقنت أنها لو كانت غنية

لما صدف تونيه عنها ولما قاست كل هذه الآلام وعاد اليها احساسها بالهلموح ، واستحوذت عليها الرغبة في الترف والثروة ، وعشياً كانت لزور الجد كل يوم وتسأله عن أخبار حبيبها . فتونيه لم يذكر اسمها في رسالة واحدة من رسائله ولم يحمل أى صديق له أية تحية اليها كأن لم يكن بينهما شئ . وكان المذاب الذى احتملته راح هباء .

تمردت نيليتا على حياة البؤس . وأنفت بيع السمك ، وأجالت طرفها في حسان القرية فألفت نفسها أجملهن فمز عليها أن تقضى العمر فقيرة مشردة وفكرت في احتراف مهنة أخرى ، وكان بالقرية رجل يدعى الاب باكو كهل موسر مريض وأرمل عصبي نفور ، وصاحب حان مشهور ، فذهبت اليه وعرضت عليه أن تعمل في حانه فقبل وعينها كعسرافة وخادمة

ورأت الفتاة بعين بصيرتها أن مركزها قد يتوطد هنا ، وأن المجال فسيح للعمل وأن السهل أحق ونغى ، وأنها قد تصبح يوماً صاحبة الأمر والنهى فبذلت قصارى جهدها لمرضاة الزبائن واستجلابهم ، والتلطف معهم ، وأفرغت قواها جميعاً في استمالة السهل والتودد اليه ورعايته وحراسة ماله كأنه من حر مالها ، فاعجب بها واطمأن اليها وسلسها مقاليد الحان ، ولما أن شاهد اقبال الزبائن ووفرة الدخل ضاعف مرتبها فانشرح صدرها ووثقت من النجاح في المستقبل القريب

وكانت تعيش في جناح خاص من منزل الاب باكو تأكل هناك وتنام ولا تفكر الا في تحقيق آمالها السكبار

وساعدتها على ذلك شخصية السهل فقد كان بدينا نهماً أكو لا بخيلاً وكانت هى تقتصد له وتدخر وتقتز في النفقات حتى ازداد الدخل وفرح الاب باكو وبات يرى في نيليتا المرأة العاقلة الرشيدة الخازمة

ولم يكن ليلحظ كل هذا ويفهم الخطة المدبرة سوى مدام ساماروكا . وهى امرأة داهية . واسعة المطامع شديدة الغيرة . قبيحة الصورة . نمامة واشية مافئمت تعمل نفسها بالسيطرة على الاب باكو والاستيلاء على ثروته والافتران به بعد ان توفيت زوجه التى كانت شقيقتهما

ونشب الصراع بين المرأتين . كل منهما تدرس للآخرى وتلقى في روع السكهل
أبشع الافكار والظنون
فتتهم ساماروطا الفتاة بالخلاعة والتهتك والطمع ، وترميها نيليتا بنفس التهم
والرجل حائر بينهما مسلوب الحول فاقد الارادة لا يسلم بسوء نية الفتاة بينما
وجودها يدر عليه الذهب أنهارا

واستحكمت صلة المودة بين السكهل ونيليتا وركن اليها برغم الوشائيات
ولما أحسست أنه وثق بها تمام الثقة أقبلت عليه وافتنت في أغوائه وراحت تجود
عليه ببعض الدعابات . وتتجمل وتتظرف وتبادلہ النظرات الطويلة الساحرة
والاحاديث الممسولة الفاتنة حتى استيقظ في السكهل وهم الشباب فشغف بها
وعرض عليها الزواج
عرفت ساماروطا بالامر فجئن جنونها وذهبت نشيع الخبر في القرية وتنمش
عرض الفتاة

ولكن نيليتا هزأت بها وتحدثت القرية ظمها ونصحت السكهل بالتمهل بضعة
أسابيع . ثم على حين فجأة وقد ظن الناس أن القصة محض مهزلة أوعزت الفتاة
إلى الاب باكو ان يعلن موعد الزواج ففعل . فوقع النبا على ساماروطا وقع
الصاعقة ، اما فتیان القرية فقد عجبوا لنيليتا كيف استطاعت ان تصرخ غريمتها
وتفوز بالمال وتحقق جانباً عظيماً من أحلامها

وأصبحت مدام باكو - وأصبحت ربة المنزل والخان . تجلس أمام الزبائن
جلسة سيدة وتأمر فتطاع . ولا أحد يجسر على التعريض بها
وكيف كان يمكن ذلك وهي تعمل وتجود وتسعى غير حافلة بالرجال ولطمهم
بها معجب مفتون

واشدت وطأة داء المفاصل على الزوج فكانت تخدمه وتسهر عليه وتعهده كأنما
هي حقاً تخشى عليه الموت وتخاف العزلة والتبتل من بعده
وقرت نفس الشيخ بعواطف الطيبة والرحمة والاخلاص تسكبها في فؤاده هذه
المخلوقة الحسنة الصبية العاملة التي أنستة قريته الأولى وخففت عنه عبء شيخوخته
ولم تأسف على شبابها الناضر يذوب ويضمحل بين جدران بيت موحش تكتنف
جنباته الظلمات !

وفي ذات يوم والريح تهصف في الخارج وابواب البيت ونوافذه تترجج وتتضارب
والمطر ينهمر والرعد يدوي دخلت امرأة من نساء القرية وأخبرت مدام
نيليتا بمقدم تونيه

اضطربت بالرغم منها وعلا عجاها الاصفراء وأشاحت بوجهه اللحظة ثم صرفت
المرأة واعتمدت رأسها بيدها وأخذت تفكر . . .

خامرها احساس عجيب بالفرج . وأحست كأن قلبها الخاوي يمتلي فجأة وكأن
الاحلام القديمة تنبثق من اعماق خاطرها وتمرام ناظريها وتملك عليها مشاعرها
وتخيلها عذراء كما كانت أيام البؤس والهوى

تقدمت الى المرأة وتطلعت برهة وجملت تحديق في تقاطيعها وتصلح من خصلات
شعرها وتتأمل ما اذا كانت لاتزال جميلة ام ان هذه الحياة قد أجهزت على البقية
الباقية من سحرها

ولكنها شاهدت وجهاً ناضراً . وعيوناً فاتنة . وخدأً مورداً وبهجة طارئة
شائعة في كيانها كله

فابتسمت ابتسامة فاترة وتهطرت وتحملت وألقت على لتففيها وشاحاً من حرير
اسود ونزلت الى الحان تخطر وتتهادى

وما ان وطئت قدماها عتبة الباب حتى تراجعت وشحب لونها وخفق فؤادها
خفقاً شديداً وجمدت بغتة لاتستطيع حراكاً

رأت في وسط الغرفة حبيبها القديم تونيه واقفا ينظر اليها ضاحك السن
منبسطة اليد وقد انسكب عليه جمال جديد لم تكن لتجلم به أبداً

ألفته وقد ازداد رجولة . وازداد ثباتاً . وازداد عزة وكبرياء وسلطاناً فتقدمت
اليه على مهل وصاخته ويدها ترتعش وعينها لاتفارق عينيه

جاذبها أطراف الحديث وقص عليها بعض نوادر المعسكر وأشاد ببطولته في
المستعمرات وهي تستمع اليه بأذن مرهقة ونفس ظمأى تنهل عباراته وترتوي منها
وشهر الشاب أنها اكتملت وازدهرت محاسنها فنسى نفسه وظل بقربها
ساعة كاملة وساعدهما الحظ فلم يطرق الحان انسان

وفيما هما يتجادلان إذا بالباب يفتح ويدخل الاب باكو
تراجعت نيليتا وصمتت . وأجفل تونيه . ولما أقبل على الشيخ خياه أحسن
تحية . وأخذ بيده فأجلسه في مقعده . وطارحه النكات . وقدم له كأسا على
حسابه . وقص عليه هو أيضا أغرب نوادر الجيش ...
ولما سأله الزوج أية مهنة سيحترف وماذا ينوى أن يعمل . أجابه أنه قد
حن إلى الصيد وأنه ما جاء إلى هنا إلا ليتفق معه على العمل سويا ...
دهش الأب باكو واستوضح الشاب جليلة الأمر فقال تونيه أنه مستعد للعمل
لو أمدته الشيخ بالمال اللازم لا يتباع القوارب والشباك . أما الرج فيكون
مناصفة بين الاثنين وأما الحسارة فيتحملها الفريقان معا
فكر الزوج لحظة ونظر إلى الشاب نظرة فاحصة وخيل إليه أنه يستطيع القيام
بهذا العبء الشاق

وتمثل المشروع الجديد وأرباحه الوفيرة وقوة هذا الشاب الذي سيعرف كيف
يستخدمها ثم التفت إلى امرأته يسألها رأيها فأيدت الفكرة وامتدحت تونيه
وشجعت زوجها فقبل الشيخ وتهدد بدفع المال اللازم لشراء القوارب والشباك
ولم يكذب يمضي أسبوع واحد حتى بدأ تونيه يباشر مهنته
وفرح بمقدمه أهل القرية واستقبلوه انخم استقبال وهنأوا الأب باكو على
حسن اختياره وتنبأوا له بالنجاح العظيم . أما تونيه فالف الذهاب إلى الشيخ والتردد
على الحان . ومقابلة نيليتا . والسهرة هناك وقضاء اوقات الفراغ في احتساء الخمر
من يد محبوبته

كان يغافل الزبائن ويغازل المرأة . ويغافل الزوج ويطارحها الغرام . ويظل
يطوف بها مداعبا متوسلا ملحفاً . وهي تروغ منه وتتمنح عنه احرص
ما تكون على نعمتها تخشى أن هي استسلمت إليه ان يفتضح أمرها فيجرمها
الزوج من نصيبها في اوقافه وتفقد الثروة التي كلفت وتكافح في سبيل الاستيلاء
عليها

ولكنها كانت تحب تونيه . ولا تطيق فراقه . وتعذب بالعاملين القويين :
عامل الحب وعامل الحرمان

لذلك بذلت كل ما في وسعها للاحتفاظ بالشباب فجعلت تمنيه بحياة المستقبل يوم ان يموت الشيخ البغيض . ويخلو لهما الجو فيتمعتان بالراحة والثروة والحب ولكني تودع الثقة في نفس الزوج أخبرته انها نشأت في منزل تونيه وأنه بمثابة أخ لها وألا خوف عليها منه . بل لاخوف على المرأة الفاضلة من أحد ... ولم يكن ماضيها الزوجي ليساعد الأب باكو على الشك فيها . ولكن المرأة الدساسة الواشية التي طغنت في صميم كرامتها - مدام ساماروكا - كانت لا تنفك تفد الى البيت وتخالس الحبيبين النظر الشرر وتروود حولهما وتختلي بالزوج فتصعب في اذنه سم النميمة والغيرة . فيثور ثائر نيليتا وتستنكر وتستخط وتأتى ثم تطوق الشيخ بذراعها الناضرتين وتبتسم له ابتسامة حلوة فينسى

وضجر تونيه من هذا الاسلوب في الحياة . وبدأ يتألم لاحساسه بأن المرأة التي يهواها قريبة وبعيدة . محبة وغير محبة . قاسية ورحيمة تعلله بالسعادة المنتظرة بينما هو الساعة كاشق ما يمكن أن يكون انسان . وكاشفها بدخيلة قلبه وصارحته بما في نفسها وإذا بها مثله تتألم وتناضل وترجو اليه أن يتمهل ويفهم ويقدر ومرت الايام وتونيه يزداد عذابا . ونيليتا تشفق عليه وتطيب خاطره . وتعهده خيرا . ثم تودعه وتصعد الى حجرتها وتظل تفكر والحسرة تملأ فؤادها والعجز يحتاج أعصابها . والغيط من حباة زوجها الطويلة يطرح بخواطرها الى مسارح بعيدة ترقص عليها أطيايف الجريمة والحب والحرية !

وفي ذات صباح وقد أمضتها العزلة وبرح بها الألم وأنفت نفسها قرب الشيخ المريض وعز عليها كيف تفرض على من تهوى العذاب فرضا استوت على فراشها ونضت عنها ثوب الليل واسرعت فارتدت معطفها وانبأت الزوج أنها ستخرج الى الصيد اليوم صحبة تونيه كي تراقبه وتستوثق بنفسها ما اذا كان أميناً في معاملاته . خلاصا لهما كما يزعم

والثقت بالشباب فما ان رآها حتى صاح كالجنون ولكنها وثبت وثبة كبيرة واذا بها في القارب تقهقه ويدها الرقيقة تعبت بماء البحيرة البارد الشفاف واحتملها التيار . وكان الجو صحوا . والنسيم عذبا . وانغام العصافير تنصاعد في الفضاء وضحكات المرأة ترن وتعالى . والقارب يشق عباب الماء . فلم يكن

اليوم يوم عمل بل كان يوم غرام ورجع تونيه الى القرية صفر اليدين الا من سعادته
فاعتذرت عنه نيليتا وأقنعت الشيخ أنهما لم يوفقا وان الشاب يرعى مصلحة
شريكة حق الرعاية . . .

وكانت زهرة القارب هذه سبيل التهلكة
ضعفت نيليتا وطاوعت الشاب فزلت بها القدم. وما ان علمت مدام ساماروكا
بالامر حتى طافت ببيوت أهل القرية . تقص عليهم الحادثة وتهولها وتضيف عليها
من عندياتها بما تشفى به غليل بغضها وانتقامها
ولكن الزوجة لم تعبأ وكأنا أسدلت غشاوة على عينيها . فاهمات العناية
بزوجها وانصرفت الى مرضاة نفسها ولم تعد تفكر الا في عشيقها وفي لقياء
وفي الجلوس اليه وفي محادثته وفي الثار للماضى الطويل الذى تقضى بين لهم والمرض
والشيخوخة والشقاء.

ونشأ عن ذلك ان استفحل الداء فى جسم الأب باآر فاستدعى الطبيب
فنصح له بالانتقال الى قرية أخرى تبعد عن هذه بهنمة أميال
حاول ان يصطحب زوجه ولكنها رفضت بحجة ان أقاربه هناك . وانهم
يغضونها لفقرها . وان كرامتها تأنى عليها العيش فى وسط يحقرها ويعددها دونه
حسباً ومالا

ورحل الزوج بمفرده وبقيت نيليتا . وما ان أبصرت نفسها فى البيت وحيدة
حتى كادت تجن فارسلت تستقدم اليها تونيه وهى لا تدري أنها تحفر بكلتا يديها
القبر الذى ستلحد فيه غرامها الاول والاخير !

شاعت الفضيحة فى القرية . واضطربت الافكار وأمعنت ساماروكا فى
الوشاية وتبعثها كل فتاة عانس صلبة القلب غليظة العاطفة فانعقدت حول المرأة
وعشيقها سحب كثيفة من المثالب والمطاعن ومختلف ضروب الاهانات والتحقير
وكان ان أحس الزوج بالمرض يشتد وينذر بالموت القريب وأخبرت
ساماروكا أن الشيخ فى خطر فاستقلت القطار للعال وأسرعت اليه تقص عليه ما
وقم ولكن صديقة لنيليتا علمت بما كان فبلغتها النبأ فادركت الزوجة أن غريمتها

تواصل مسعاها لتحررها من حلقها في أوقاف زوجها فبالها الامر وترك عشيقتها
يرغى ويزبد وخرجت تحت جناح الظلام والقرية هادئة . والرياح تصفر والناس
نيام وسافرت الى حيث يقيم زوجها

بلغت المنزل وقد أوشك الليل ان ينتصف فسمعت لغطاً شديداً . وحركة
غير عادية وجلبة ومناقشة وضوضاء . فدخلت وما ان توسطت رحبة الدار حتى
التقت بساماروكا وجها لوجه فتصاعد الدم الى رأسها وفقدت رشدها وانهاالت
على عدوتها لظما ورثلا وعضا بأسنانها وتمزيقا بأظفارها والمراة تصرخ
وتستغيث وتلول

وخرج أهل البيت على الصباح ففرقوا بين المرأتين واقتادوا نيليتا الى فراش
زوجها فما ان رآته حتى أجهشت بالبكاء وأقبلت عليه تقبله وتؤاسيه وتلومه أشد
اللوم على انقياده لتلك الفاجرة ونكرانه جميل زوجها وعظيم تضحياتها
وانتصرت نيليتا نصرا أشبه بالهزيمة فلم يحرمها زوجها من نصيبها في الوئف
بل وهبها اياه مشرطا في وصيته ان يصرف اليها المال مادامت لاتزوج أما
اذا تزوجت فتحرم منه . . .

وفي صباح اليوم التالي توفي الاب باكو فعادت نيليتا الى القرية واتشحت
بالسواد وتصنعت الحزن والرصانة والياس العميق . واعتزمت الا ترى تونيه
طوال مدة الحداد ريثما تهدأ العاصفة وتكف الاسنة عن النقد والتشهير
واكتنفا لم تستطع . فبعد شهر مضى لم تلق فيه حبيبها أصيبت بشبه خبال
فكانت تطوف بغرف البيت تائمة والهة حيرى . تستعيد خيالات الماضي فتحن الى
السعادة الضائعة فيثور ثأرها على نفسها والقرية وزواجها الخاسر الملعون
وعاد تونيه اليها وملء قلبه الفرح . فأعماها الحب مرة أخرى عن رؤية
الحقيقة وكانت ساماروكا تراقبهما وتقنئ آثار الشاب ليلا فتراه يتساق جدران
البيت فتسرع الى صديقاتها وتخبرهن بما يقع

وفي ذات مساء احست نيليتا والرعب يمزق فؤادها والظلمة تغشى عيونها
انها ستصبح أما

طاش صوابها ولم تدر ماهى فاعلة . وكان عليها أن تنزل يومياً الى الحان تجالس

الزبائن وتحاسب وتأمّر وتنظم وتعمل
فكانت لا تلبث أن توصل أبواب الحان حتى تهرع الى عندعها فتبكي بكاء طويلا
وتعض أصابعها غيظاً ولوعة . وتظل ساهرة تفكر حتى الصباح
وأخيراً ساعدها القضاء ووضعت غلاماً فما أن شاهدته حتى أيقنت أن كل
ما بذته قد يتهدم في هذه اللحظة . لم تشمر لابلالامومة ولا بالرحمة . لم تقبل الطفل
قبلة واحدة . بل رفعت بصرها الى حبيبها الشاحب اللون المذهب المنتفض وأمرته
أن يأخذ الطفل ويذهب ترواً الى البحيرة فيلقى به فيها !

جثا عند أقدامها يسترحم ويتوسل . يندود عن حياة ابنه المعبود ثمرة حبه
ورمز هواه وليكنها صاحبت به زاجرة مستنكرة . وخيرته بين الطفل وبينها
وهددته بالقطيعة التامة ان عاش الغلام ساعة واحدة ايضاً
دهش تونية لفرط ماهي عليه من وحشية وقسوة . الا انه كان يحبها فامثل لها
واحتمل ولده فقبله قبلة طويلة حارة شم التي به في الماء والدمع ينهمر من عينيه !
وعاد اليها ملتهب الاعصاب . محمر العينين . ثائراً ناقماً وقد استحال حبه
العميق الى بغض هائل . أدرك في النهاية أن هذه المرأة لم تحب وان تحب أحداً
لا ابنها ولا أى إنسان بل تحب المال ، المال وحده . وتضحى في سبيله بانبل
العواطف واسمى الاحساسات ففر من أمامها . فر والكره يطارده والجريمة تعصف
به وتبكي الضمير يلاحقه وخيال ابنه يتراءى له عن بعد فيجوب الشوارع
ويرتمى في عرض الطرقات ويهذى ويضحك ويبكي كمجنون

وكان عليه ان يذهب الى البحيرة في الغد لاصيد الطيور صحة جده فحاول
أن يتخلف ولكن الجد اجبره إذ العمل مقدس ومادام في المرأ نفس يتردد فعليه
أن يعمل دون كلال .

مشى الرجلان الى البحيرة المشؤومة وتونية يرتجف ويشيح بوجهه ويتعثر
والجد يلحظه مفكراً في أقوال سامارو متريداً في تصديقها ساخطاً على حفيده
الساخط كله

ولاح طائر في الهواء فسد تونية سلاحه وأطلق النار فسقط الطائر في جوف
الماء وللحال قفز طيب الصيد وهبط البحيرة وبدل ان يخرج بالطائر برز قابضاً

بين أسنانه على جثة الطفل منتفخة شوهاً يقطر منها الماء فما ان رآها تونيه حتى
تراجع وصاح صيحة هائلة ثم صوب سلاحه وأطلق فاصاب الكلب فسقط في
البحيرة وسقطت معه الجثة وغاب كلاهما عن الابصار

ارتعدت فرائص الجد وذكر ما قالته سماروكا وأدرك بسليقته المتوقدة كل
شيء . فاقترب من حفيد هو أمسك به وهزه من كتفيه واسكن الشاب تملص منه
ودفعه عنه ودنا من حافة البحيرة وصوب السلاح الى صدغه واطلق النار
فهوى جسمه في البحيرة يدوى دويماً مفعزاً

لم يذرف الجد دمعاً واحدة . لم يأسف على حفيده . لم يشك ولم يتملبل . بل
نصح لابنه بالصمت والاحتمال والصلاة . ولم يشأ أن يتهم المرأة ولا أن يثار منها
خافة أن يشيع الفضيحة بنفسه وأن يلوث يديه شرف الاسرة التي حافظ عليها جهده
ولكنه ذهب الى نيليتا . دخل عليها أصفر الوجه مشعث الشعر لأمع العينين
وصرخ فيها أن البحيرة قد انتقمته له وانها التهمت ، الوالد والولد !

ثم خرج لابلوى على شيء
صهقت المرأة . وحملت في فضاء الغرفة كبلها . وانتفضت انتفاضة شديدة
ثم تلفتت حولها واذا بالبيت جميل . والأثاث فاخر . والأثاث ساحرة والمال
يتدفق عليها كسيل منهدر
ولكن الآن... الآن... ماذا يفيد كل هذا ؟ ...

ماذا تجدى أموال العالم جميعاً بعد أن ضاع كل شيء ! .. مات حبيبها ومات
ابنها ومات شبابها ولم يبق الا ان يحجز القضاء عليها ايضاً لتستريح !
ولكن القضاء يأبى هذا . يأبى الا ان - يا - نحيا لتذكر وتألّم وتكفر !



السمفونية الريفية (١)

Symphonie pastorale

لاندريه جيد

نغمة رقيقة عذبة فيها شجر وفيها أنين . . .
نور تنخلله ظلمة ندية خفيفة تسكبه فتنة عميقة كفتنة أيام الشتاء الممطرة
مزيج من الاحساس بالرحمة والشعور بسخرية القدر ، خير يولد شرأ وشر يبعث
في النفس أروع مظاهر الخير
كل هذا في أسلوب سهل بسيط لامع يترقق في اثنااد حالم كما الغدير
تلك هي الالوان التي مثلت امامي وشعرت بها لدى مطالعتي قصة (السمفونية
الريفية) للكاتب الفرنسي الكبير اندريه جيد .

وأنا أن حدثتك عنها أيتها القارىء فانما أحدثك عن نفسك ونفسي وعن
مبلغ حاجتنا الى الجمال ورغبتنا في امتلاكه . وعن غدر الطبيعة بنا وعيشها باوضاعنا
الاجتماعية وشرائعنا ونظمنا في سبيل اقرار احكام الغريزة النزاعة ابدأ الى
الحرية المطلقة في العواطف والميول ولو على انقاض الفضيلة وانقاض أحب
الناس وأقربهم اليها

فقد يعتنق المرأة فكرة جليلة . أو يخضع لنواميس المجتمع . ويرضى بما تواضع
الكل عليه ويقضى اثنى أيام الشباب في تهذيب عقله . وترقية وجدانه . وصقل
روحه . وتطهيرها من مختلف شوائب الدنس ليطاول مثلاً خلقياً أعلى نادى به
الاخلاقيون وشادت به الكتب المقدسة . فاذا ما أقبل على السكمولة وتمشت في
جثمانه ارادة العدم وشارف لحده الضيق عن بعد خالجه الشك في آرائه ومبادئه

(١) السمفونية هي قطعة موسيقية موضوعة لمجموعة آلات الاوركسترا

واستفاقت فيه بغتة قوى الحياة المدخرة واحس بالفراغ الرهيب يكتشفه واستشعر الحسرة العميقة على السنين الضائعة في غير ما لذة أو متعة فراح يدمر الهيكل الذى ابتنى . وراح يسخر باشباح الفضائل التى ضيقت آفاق حياته . وحبسته في سجن من العواطف واحالته آلة مسخرة للخدمة الآخرين

ومن الغريب أن الطبيعة كى تجتذبه اليها . وتظفر به وترده الى أصله الحيوانى الذى منه انحدر تزين له المروق . وتغنى على نزعاته الشاذة الخطيرة حلة طريفة رائعة وتمثل الشر الذى يكره في صورة الخير الاسمى . وتلقى في روعه أن الثورة على الفضيلة نعم الفضيلة والانتفاض على الامثلة العليا نعم القوة ونعم الحياة

وقد يتألم الرجل أفظع تألم . ويظل يترجح بين سموه النفسانى القديم ، وطغيان هذه الحياة الجديدة عليه فيود أن يشوب الى رشده ويفكر في ضعفه ويتراجع الى حيث يستكمل مثله الاعلى ولكن الطبيعة — وهى تفتح عينيه على مفاتن لم يكن قد أبهرها من قبل — تلوح له بالموت القريب وكأنها تمس في اذنه أن لاحياة بعد هذه الحياة وان كل شىء باطل ما خلا اللذة الابدية المتدفقة في وجوده وفي وجود كل شىء تقع عليه عيناه

وهذا ما وقع للقس البروتستانتى بطل رواية اندريه جيد

فقد اختاره الكاتب من رجال الدين ليرسم لنا مبلغ ما يصل اليه الانسان من قوة في كبس شهواته . ومبلغ الصراع الذى سوف ينشب بين هذه القوة وقوى الغريزة الجائعة الغميا

كان القس سميدا بين زوجه وولده وكانت حياته الريفية تنصب في مجرى هادى وميوله تتفق وعقيدته وايامه منصرفه لخدمة الاسرة وخدمة الغير حتى دعى ذات صباح لاسعاف مخلوقة تسكن في طرف قصى من أطراف الجبل المجاورة وتكاد تشرف على الموت

ما ان رآها حتى علت جبينه الوضاح سحابة هم ثقيل ودبت في قلبه شفقة لم يحس بمثلها لمخلوق

شاهد فتاة مددة قرب موقد متأرجح ، فتاة بائسة هزيلة مصفرة الوجه زائغة العينين منكشة الاعضاء سريعة اللقنات تجفل لأى ملمس أو صوت نفوراً مستوحشة أقرب إلى الحيوان منها إلى الانسان

تأملها فإذا بها عمياء فاستفسر الجيران عنها فقيل له إنها شريفة لا أهل لها ولا مأوى

استفاقت في نفس الرجل شتى عواطف الرحمة وتنبه فيها احساسه بالإنشاء
البشرى وكطبيب الجسد الذى تستقره رؤية الممرض فتدفع به سايقتة للقيام
بواجبه كذلك القس - طبيب الروح - أراد أن يؤدي واجبه هو أيضا وأن يحارب
هذه الحيوانية المتمكنة من الفتاة ويبدد عنها ظلمتها ويوقظ جوهر نفسها
الساذج على حياة عاقلة جميلة سامية

فاقتادها الى بيته. وأنزلها من قلبه منزلة ابنته . وقام على تربيته بنفسه . وجعل
يحرك فكرها الراقد وينفخ الروح في جسدها المتوحش ويعلمها كيف تنصت
وتفهم وتتحمس وتقارن وتفاضل وتميز بين صوت وصوت وخلق وخلق وجمال وجمال
وأفرغ عصارة جهده في تهديدها والعناية بها فنجح في تجربته واستطاعت
(جرتروود) بعد زمن طويل أن تقرأ في كتب العميان

فرح سيدها واغتبط وطفق يفسر لها عالم الالوان بواسطة عالم الاصوات
ويكشف لها النقاب عن حقيقة ما يحيط بها . ويؤلف في ذهنها شيئا فشيئا فرة
أقرب ما تكون إلى واقع الحياة

ومضى بها ذات مساء إلى حفلة موسيقية . فما أن استقر بها المقام وهبت عليها
عواصف النغم وغمرتها الألحان المتوثبة المنوعة في اتساقها العجيب حتى اختلجت
اختلاجا شديداً وأمسكت بيد منقذها واشترأت بعنقها الغض نحو هذا العالم الجديد
وكانوا بهزفون (السمفونيا الريفية) لبتوفن فخل الى جرتروود أن القرية التي
أحسنت بها هادئة وسنانة حاملة تهيش الآن أضفاف حياتها وتضطرب وتموج
لغابة من تلك الغابات السكيفة الشاسعة التي طالما حدثها عنها سيدها . سمعت زفيف
الرياح . ودوى الرعود ، ولعلعة البروق . وهطل الامطار ومسير الجدول . وهدير
الموج . ونعيق البوم . وتناغى الطير وحفيف الشجر . فذهات وعراها شبه خيال
وجعلت تلاحق بفكرها النغم القافر وتذكر أنها سمعت مثله فيما مضى . وتستعين
بسيدها على معرفة اسم المظهر الطبيعي الذى يعبر النغم عنه .

وكانت الموسيقى من العمق والصدق وقوة التعبير ودقته بحيث هزت طبيعة

الفتاة من اعماقها . وحركت هامد عقلم وصبت على الظلمات الطائفة بها
سيلا متوهجا من نور ! . .

أجل وقعت المعجزة . وأيقظت الموسيقى باصيرة العمياء فـ « أبصرت » . . .
أبصرت الدنيا بأفراحها المتهللة وألوانها المتنايزة وعرفت ماهى الغابة وماهى
القرية وماهى العاصفة وباتت تفرق بين شجرة وشجرة وزهرة وزهرة وطائر
يرف على الجدول وآخر يشق اجواز الفضاء
وكاد يحن القس من فرط الفرح وأدرك انه فاز على الطبيعة العاتية وانتزع
من جوفها المدلهم هذه الروح الشابة المظلمة وأسلمها الى الله ، الى عالم الحقيقة
والجمال والخير ! .

وسرت فيه نشوة الظفر وافقدته انزانه القديم
وشبت الفتاة على يديه وترعرعت واشرق ذكاؤها وانقد فاضطرب الرجل
وألنى نفسه يفتن لا بانبثاق نور المعرفة فى مخيلة العمياء فحسب بل بتألق أضواء
الشباب على بدننها المازهر أيضا . . .

لم يهجم بميلاد الروح فحسب بل بميلاد الجسد أيضا !
ولم يستطع — وهو العاقل البصير — ان يميز بين فتنة الجسد
وفتنة الروح !

وغافلته الطبيعة ونزلت به من علياء حلمه وادنته الى الارض ثم ألهمت فى كيانه
المضطرب عناصرها الاولى . فاختلطت الحقائق فى نظره وبات لا يدري اين هو
الشر وأين هو الخير . بل أين يبدأ الشر وأين ينتهى الخير

وكان الذى أرادته المقادير وشغف الرجل بالفتاة شغف الفنان بالممحة التى
ابتدعها . وأولعت به الفتاة ولع الخليفة بخالقها .
احبها وتلقت حبه فى هدوء وصفاء .

ولم تكن تدري عن الشر شيئا لأنها مارأت فى حياتها شيئا ولا سمعت بالشر قط .
لا من فم سيدها ولا من أفواه الآخرين
كانت تعيش فى الباطن وكان باطنها نقيا نقاء زنبقة يضاء

فأحس الرجل ان السعادة أقبلت عليه في النهاية وان فضيلته الصارمة الضيقة قد حالت بينه وبين الفرح . فرشح الحياة مقدس . وان من واجب كل انسان ان يشهد السعادة ويفرح . وان هذا هو الخير بعينه مادامت الطبيعة تبيته وما دام المخلوق الذي نحبه يجهيننا اليه ويرتضيه

وتمكنت منه العاطفة فمجرز وجهه وانصرف بجمعه الى الفتاة . فأحست قرينته بالغيرة تنهش قلبها وأدركت ان هذه الفضيلة النفعية لن تؤدي الى خير أبداً .

وكان ان خلب حسن (جرترود) لب الفتى جاك فأحبها وفطن الى ما بينهما وبين والده من غرام أثيم لو أتبع له الفرص لينمو فقد يطوح بكل كرامة ويذهب بكل شرف وقد يحطم بنيان الاسرة تحطياً

ثارت نائرة الابن على أبيه واستنكر الشاب كيف أحل والده لنفسه خيانة معتقدة وكيف ضيف وهوى ، فلم يطق الوالد سماع هذا التقريع واستشعر من خلفه الغيرة تغلي في صدر فتاه فاقصاه عن البيت وحوال بينه وبين رؤية جرترود وخلا للوالد الجو وظن أنه قد ذل العقبان وفاز مرة أخرى ولكن القدر أبي إلا ان يغدر به ثانياً

وأراد ان يتم صنيعه ويقنع نفسه ان حبه لجرترود ان هو إلا مظهر من مظاهر الطيبة والرحمة فارسل بها الى طبيب في لوزان أجرى لها عملية استعادت الفتاة بعدها البصر

وما أن عادت الى القرية ووطئت أقدامها عتبة البيت ورفعت عينيها الضعيفتين المررفتين الى سيدها وزوجه حتى شعرت بوجود الشر في هذه الدنيا . . .

شاهدت الغضون القاسية العميقة تحتاج وجه الزوجة وأحست بالعذاب الخفي يطل من حديقها ويرن في سموتها ويستصرخ ويتوسل

فوجت الفتاة وأطرقت تفكير وفهمت بغثة جريمة الزنا . . .

وهاها ما وقع بسببها فاختلجت بغثة واستدارت وخرجت لاتلوى على شيء وعندما بلغت النهر انحنى وتظاهرت باقتطاف الازهار ثم ألقت بنفسها في جوف الماء . فأسرعوا اليها وانتشلوها وحملوها الى البيت وأرقدها على الفراش

وحاولوا جهدهم انقاذها ولكن الطب لم ينفع فيها ولا الحب . !
وكان سيدها واقفاً بجوار سريرها فتحاملت على نفسها واستوت على ذراعيها
وتطلعت اليه وغمغمت تقول :

... عندما انفتحت عيناى على النور بدا لى العالم أجمل بكثير مما كنت أتصور
ولسكنى واأسفاه أبصرت المصوم مخيمة على جباه الناس جميعها

وصمتت لحظة وكأنها تحلم ثم عادت تسر الى سيدها قائلة :
— الآن فهمت قلبى . هو ابنك جاك الذى أحب . ما أن رأيتك حتى أحبته .
أحبته لأنه يشبهك تماماً . . . يشبه الوجه الطاهر الذى كنت أتخيله لك . . .
وخفت صوتها بخته ورفت أهدابها وشهقت شهقة طويلة واسلمت الروح !

تلك هى القصة ، قصة رجل أحب الفضيلة حبا خياليا مفرطا خنق فيه قوى العاطفة
والغريزة . ثم أحب مخلوقة عزيزة أراد أن يهديها عن طريق الحق والخير والجمال
الى الله ولكن حبه وكمولته غدرا به وبعد أن كان يرى الفضيلة فى قتل غرائزه
وكبح عواطفه رآها على النقيض فى ارسال تلك العواطف على سجيته والاعتقاد
أن فى تمجيد الحياة وإفراحها تمجيда لله الذى أوجدها
وما لا ريب فيه أن هذا حق . حق على شريطة ألا تنافق فيه وألا يحدث
التمتع به ألما لا حد . . .

ولكن الرجل تالم . والزوجة تألمت . والولد أيضا . أما الفتاة المسكينة
فراحت ضحية الجميع !

ونحن أمام هذا الختام الرائع نقف حيارى ! ونسأل :
انقبل الفضيلة بحدودها الضيقة فنن فصل عن الحياة . أم نقبل الحياة بإفراحها
الغادرة فنحدث الألم للغير ؟
أين ، أين هى الحقيقة ؟ . . .

الأسرة بفنوا

LES BENOIT

لادمون هاروكور

ادمون هاروكور بدأ حياته الأدبية كشاعر غنائي فأصدر ديوانه المشهور (الروح العارية) وأردفه بقصة (الأصدقاء) ثم بدرامة مثلت على جميع مسارح أوروبا وهي (العذاب) التي يهتف فيها آلام عيسى المسيح . أما القصة التي نلخصها هنا فهي أروع وأجود ما كتب . وادمون هاروكور يمتاز من بين الكتاب الفرنسيين بذهن صارم عنيد ، وإرادة جبارة ، وملاحظة دقيقة ، واحساس قوى بآمال الغير وآلامهم فهو يحتمل التحليل النفساني العميق رحمة إنسانية واسعة كبعض كبار كتاب الروس

كانت زوجة والدها تعاملها أسوأ معاملة . تنتهرها أمام الاغراب ، وتفرض عليها العمل يوم الأحد أيضا ، تزدريها وتضربها وتحرمها من الحلوى ولا تجدد لذة إلا في تحقيرها أمام صديقاتها اللواتي كن ينظرن إليها إذذاك بعيون ملؤها التهمك والشماتة والقسوة

ولم تكن تجد في والدها نفسه ما ينزع اليه قلبها من عطف وحنان ، فقد كان عبداً لأمراته يتأثر بأقوالها ، ويستمع لنصائحها ، ويصدق ما تقول عن ابنته ، ويرى في ذلك مرضاة لها وإقراراً للسكينة في البيت . . .

وظلت (بنوات) الصغيرة تقوم بنفسها على شؤون المنزل ، تخرج الى السوق لشراء مختلف الحاجيات ، تحمل السلة الثقيلة على ذراعها الضامرة الزرقاء ، تغسل الآنية وتنظف الأرض ، فاذا ما خانتها القوى لحظة وقبعت في زاوية تستريح

عاجلتها زوجة والدها برحلة أو صنعة تعيد إليها نشاطها المألوف

أمعنا في إذلالها وما أن بلغت الثانية عشرة حتى ارغماها على العمل في الخارج لتكسب قوتها فاشتغلت كإدم في أحد البيوت . ولكنها أحبت هناك كلباً صغيراً كانت تغافل أسيادها وتنفر دبه وتطعمه قطعاً من السكر ، فظنوا أنها تسرق السكر وترسل به إلى أهلها فطردوها فهادت حيث كانت فأوسعتها زوجة أبيها تقريباً وضرباً ، فلم تطق وتردت البيت هائمة على وجهها وظلت شاردة حتى اجتازت القرية كلها . وبينما هي تمشي على غير هدى أبصرت فتاة طويلة القامة رفيقة المحيا ، تحمل فساتين ملونة زاهية لم تحمل قط (بنوات) ان ثمة امرأة في الدنيا يمكن أن ترتدى مثلها . . .

أخبرتها الفتاة انها تعمل كخياطة عند سيدة فاضلة وانها يتيمة الابوين وتسكن بحجرة لطيفة ضيقة الا ان فيها مع ذلك متسعاً لاثنتين . . .

شكرتها بنوات من صميم قلبها وعرضت عليها الفتاة ان تعمل معها فقبلت وعلى شفقتها ابتسامة فرح وغبطة وإخلاص

وكانت بنوات فتاة طيبة السريره ، صافية النفس ، ساذجة الى أبعد حد ، تمر برذائل الناس وشروورهم دون ان تتأثر بها أو تأبه لها أو تحاول ان تتبين دقائقها ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، ناصعة الجبهة ، مثال حي من أمثلة الجمال والشعر أما صديقتها (جبريل) فقد كانت ذكية ، ماكرة لهوباً ، تنفذ ببصيرتها الى صميم الاشياء ، ثم تطيل التفكير فيها ، ولجد أكبر لذة في معرفة الحقائق التي تخشى الفتاة عادة انعام النظر فيها

وكانتا تخرجان الى الزهرة فتبطل جبريل في السير وتلكأ ، وتقف بواجبات الخازن تعجب بالاثواب الجديدة ، وتنقدها ، وتلفت نظر بنوات اليها ، وشهوة الترف تلمع في حدة عينها ، والفتاة تتطلع وتضحك ولا تفهم تلك الأهمية العظيمة التي تعلقها صديقتها على أمثال هذه الشؤون التافهة . . .

أما الشبان فكانوا يلتفون حول جبريل ولا يحفلون بالمسكينة بنوات تفتنهم من الأولى خفة روحها ورشاقتها وحلاوة حديثها ، وتصرفهم عن الثانية رصانتها .

وكبرياء نفسها ، وبساطتها الفطرية التي لم يعط لأى منهم ان يحس روعتها ويفهمها !
وكانت تشعر بنوات بسحر جبريل وترى نجاحها العظيم فى استمالة قلوب
الشبان ، واقبالهم عليها ، وعنايتهم بها ، ولكنها لم تكن لتغار منها أو تحسدها أو
تحاول أن تستلب منها عشاقها

وهل كانت بنوات فى حاجة إلى ذلك وهى التى ترفرف بروحها بين السماء
والارض ، وتحلق فى عالم أثيرى لا تهصل اليه آثام الناس ومفاسد المجتمع . لقد
كانت تكتفى بسعادة العمل ، ونشوة الحياة ، ومرح الحرية ، وهدوء القلب ،
وما تنفجر به ينابيع نفسها من طيبة عميقة ورحمة واسعة

وعاشت برفقة صديقتها سنة كاملة . تعمل فى الصباح معها . وتنام فى الليل
بحوارها . أهنأ ما يكون بالفرنك الواحد الذى تتقاضاه من الخياطة كل يوم
وكانت تقدس جبريل ، وتعجب بها ، وتشعر بفرح عظيم كلما رأتها وحولها
سرب من الشباب يمتدحون جمالها أما جبريل فقد أغراها الاطراء ، وأخذت
بلمها مفاتيح الحرية ، وأحسست بنجاحها فى اجتذاب القلوب فتأقت نفسها الى
استكمال محاسنها ، وارواء غلتها من شتى مناعم الترف التى تشاهدها فى الحياة
العامية بعينين مشدوهتين

بدأت تهجر رفيقتها ، وتتغيب فى المساء عن موعد النوم ، وتسهر كشباب
طليق حر ، وبنوات تنتظرها ، حائرة قلقة مضطربة لا يغمض لها جفن
وتمكنت هذه العادة من نفس جبريل فكانت لا تدخل الحجرة الا بعد
منتصف الليل مغبرة الوجه ، مشبعة الشعر ، تهبة ، كهيئة ترتجى على الفراش
كجثة هامدة

وفى ذات ليلة فتحت الباب وأبصرت بنوات صديقتها شاحبة اللون ، غائرة
العينين ، قاقبلت عليها مستفسرة فما كان من هذه الا أن طفقت تبكى أحر بكاء
وتقول ان شقيا خدعها واغواها ، ومناها بالزواج ثم اعرض عنها ، وهى
منكودة منبوذة ضعيفة ، تحمل فى احشائها ثمرة ذلك الهوى المشؤوم . . .

لم تفهم بنوات حق الفهم كلام جبريل فقضت هذه عليها قصة غرامها ،
وشرحت لها الدقائق والتفاصيل ، فشعرت بنوات بخطورة الأمر ولبثت تفكر
لحظة . ثم استوت في مجلسها وحدقت في رفيقتها وقالت انها ستطلب الى الخياطة
عملا إضافيا تضاعف به دخلها اليومى ما استطاعت لتمتد من الاتفاق على
صديقتها أيام الوضع فاذا ما انتهت ، رجعت جبريل الى العمل ، واهتمت المرأتان
بتربية الطفل

وذهبت الأم الى المستشفى ووضعت طفلها . ولما أصيبت عقب الوضع
بى نفاس شديدة أودت بحياتها .

ذعرت بنوات للخبر ، وأسرعت الى المستشفى فشاهدت صديقتها المعبودة
جسما لا حراك فيه وابصرت الطفل يالوح بقبضتيه الصغيرتين ويبكى فكد يتمزق
فؤادها حسرة فما كان منها إلا أن توسلت واسترحمت بغية ان يعطوها الطفل
لتتولى أمر تربيته بدل أمه التعسة فأجابوها الى سؤالها وسلموها إياه فحملته بين
ذراعيها وجهلت تقبله وتناغيه وتدهدهه ثم خرجت به وفي نفسها شعور عميق
بأن حياتها قد أصبحت ذات معنى ، وان فى وسعها الآن أن تعيش وتكد وتتألم
فى سبيل مخلوق ليس له فى العالم غيرها !

وكانت تقرر على نفسها وتقتصد جهدها لتنفق على تعليمه . وشب الفتى وترعرع
وجاز فصول الدراسة الأولى ، واشتهر بين إخوانه بالذكاء الخارق ، والاجتهاد
والدأب . فكان لزاما على والدته ان تستأنف تعليمه ، ولما لم تستطع تلبية تلك
المطالب الجسيمة . والتكاليف الباهظة التى يستلزمها التعليم الثانوى

التمست الى الخياطة ان تقرضها مبلغا على الحساب فرفضت ، ونسبت الى مدير
المدرسة ان يملكها شهراً فانى ، راحت تستدين من صديقاتها على غير جدوى ، سدت
فى وجهها السبل وتنكر لها الجميع فقامت من فورها وارتدت ملابسها . واستقلت
القطار الى باريس ظناً منها أنها سوف تجد هناك عند الخياطات السكيرات عملا
يمتازا يعود عليها بالربح الوفير ، خاب أملها وألفت نفسها مرغمة على مضاعفة
الجهد لاكتساب نفس المرتب الذى كانت تتقاضاه فى القرية والا زاحمها جيش
الفتيات العاطلات وقضى عليها القضاء المبرم

ودفعت بها الحياة الى المهواة مكرهة . ساقها الاعتراف بجميل جبريل ،
والاخلاص لولدها ، الى التضحية بجسمها تضحية كاملة ..

كانت تعمل في المشغل صباحا وفي الشوارع ليلا ثم ترسل بالنقود الى المدرسة
ولاعزاء لها الا في مطالعة الخطابات التي كان يبعث بها اليها المدير مثلها على الفقى
أجمل ثناء معللا أمه بالمستقبل الزاهر القريب

وبلغ الشاب التاسعة عشرة من عمره وكانت جبريل قد دعت (بنوا) تيمنا
باسم صديقتها فلما توفيت وشب الغلام وأدرك أنه ابن الهوى المحرم ، ثارت
في نفسه عوامل السكند والآسى ، ومال الى المزلة ، واستوحش ، وزاده نفورا
موقف الطلبة من نحوه ، وتعبيرهم له ، وسخريتهم منه ، وقسوتهم واحتقارهم ،
ولكنه كان برغم هذا يحس أعشق الحب لبنوات ، وأوفى الاحترام ، لا يكاد
يراهما مقبلة عليه في ردهة المدرسة حتى يتقدم اليها باسطاً ذراعيه باسم والدفع
يجول في عينيه

وبينما كانت بنوات جالسة في المشغل ذات صباح تخطط فستانا رائعا لغاية من
غواني باريس سلموها خطابا جديدا من مدير المدرسة ما ان قرأت منه بضعة
أسطر حتى أشرق بحياها وتهلل

أخبرها المدير أن بنوا نجح في الامتحان النهائي نجاحا باهرا وان الحكومة
قد تعهدت بالانفاق عليه حتى يتم علومه

أحست المرأة أن حياتها قد تبدلت بفترة . وان العناية رافت بها ، وأنقذتها
من التهلك الاجبارى الفظيع الذى كان يسمم عظمة تضحياتها

ومرت الأيام وتخرج بنوا وعين أستاذا في مدرسة (فرون) واستقدم اليه
« أمه » وعاشا معاً في مسكن صغير وجميل . وابتنى لهما الدهر فترة ، فكانا يخرجان
الى الزهرة معاً . تتأبط ذراعه وتتوكأ عليه ويحنو عليها ويرعاها ولا يفكر الا
في العمل من أجلها

ولم يكن يترك البيت الا الى المدرسة ، لاخالط أحداً ، ولا يهتم بأحد ،
تمر به فتيات القرية فلا يأبه لهن وتقام المراقص والأعياد فلا يحفل بها ،

تعرضه الحسان الماكرات ويخدقن فيه ويداعبنه ويسخرن منه فيتطلع اليهن ذاهلاً ثم يلوى وجهه ويهز رأسه حكيم يستخف بكل شيء.

وكان بنوا لفرط ماقاسى فى صباه من اضطهاد الطلبة رفاقه قد شغف بالعلم وأرصد عليه جهوده ولم يعد يجد فى المرأة الفتنة الخطيرة التى تجذب كل شاب. لم يكن فى حاجة للمرأة وهو الذى يفيض عليه الفسك لذة تفوق كل لذة. ولكن هذا لم يكن ليرضى القرويين فقد كانوا وشاة نمامين خبيثاء يدهشهم من هذا الشاب الغريب جهوده واتصاله بتلك المرأة الصامطة الوديعه التى يدعوها بوالدته بينما هى صبية فى الخامسة والثلاثين وهو فتى لم يجاوز بعد ربيعہ العشرين . . .

حامت حولهما الشكوك ، وأشعلت الفتيات الغيورات نار الفتنة ، واتهم الجميع بنوا انه يعاشر خليله له ، وان سلوكه لا يتفق ومهنته ، وانه يفسد أخلاق تلاميذه ويضرب لهم أسوأ الأمثال

وشكا البعض الى مدير المدرسة شذوذ هذه الحال. وأوغروا صدره على الشاب ودافعوا عن أخلاق أبنائهم وسمعة القرية فما كان من المدير الا ان أرسل فى طلب بنوا وهدده بالاقالة ان هو لم يتزوج من خليلته . .
عشاً قص عليه الشاب قصتها ، عشاً حاول اقناعه أنها بمثابة ام له وانه يحترمها ويقدرها كأحف وأطهر السيدات

وذهب اليها مغموماً حزينا وأخبرها بما كان فاسودت الدنيا فى عين المسكينه وخيل اليها أن القضاء عاد يطاردها ، وأنها بدل أن تسعد ابنها قد نجر عليه الشقاء بل قد تهدم فى لحظة هذه الحياة الغالية التى ازهرت على يديها فى سنين حارت فى امرها ولسان الشاب تقدم اليها وعرض عليها ان يقترن بها انفاذاً لهما واتقاء وشايات القرويين ضعاف العقول غلاظ الالكباد . يقترن بها فى الظاهر وأمام المجتمع الذى لا يرحم ثم يواصلان العيش كوالدة وولد !

طاش صوابها وهالها منه اصراره وأدركت انها لو طاوعته لدفنت شبابه بكلماتها . وتوسلت اليه أن يبحث عن فتاة طيبة تشاركه حياته وأن يتزوج منها ولكنه كان مفكر متشائماً يكره المرأة ويمقت الزواج ولا يود أن ينحدر من صلبه الى محيط هذا العالم مخلوق جديد يتعذب ويشقى . كما تعذب هو وشقى

لم تجد بداً من اطاعته فرضيت وقبل ان يهقد له عليها كاشفته بماضيها وكيف انها كانت تنهتك لتنفق على تعليمه ، فلم يستنكر ولم يأنف ولم يلم بل انحنى وقبل يدها وطفق يبكي !

وسمت في عينيه وبات ينظر اليها كقديسة شهيدة خليقة بأن يبذل في سبيلها كل شيء وظن بنوا ان عهد الاضطراب قد انتهى ، وانه سيحييا بجوار بنوات حياة رجاء وهدوء . ولكن من الذي في وسعه الانتباه سر القضاة ؟ من ذا الذي في مقدوره معرفة ما يمكن ان يحى به الغد ؟ الاعوام تتوالى ، والاعمار تنفنى ، ولا يوم يشبه الآخر بل لاساعة تشبه الاخرى ، كل قوة تنصب في الابدية ، وكل فرح لا بد مقترن بالدم

رضى الرؤساء عن بنوا وعينوه ناظراً لمدرسة جديدة في قرية نائية . فرحل اليها وتولى مهام منصبه وأحس أنه سيلبغ في مهنة التعليم شأواً كبيراً لو أنه ظل مشابراً على الجد والنشاط

اطمأنت بنوات ولو أن ضميرها كان يبلتها كلما رفعت بصرها وشاهدت ذلك الوجه الأني الجميل يتقلص شبا به أمام عينها شيئاً فشيئاً . كانت تتألم في وحدتها ، وتبكي حنقاً وحسرة ، ولاتفتر تغمغم انها المسؤولة عن كل ما وقع وانه كان واجباً عليها أن تفر إلى باريس وترجع الى العمل وتدع الشاب يتزوج ويستمتع بشبابه في صفاء وهناء

واكتنفتها عزلة القرية وعقد الصمت حولهما جوه الثقيل وأحست بنوات ان لابد من التفريج عن نفس الفتى بارتياح المجتمعات والتعرف الى بعض أسر القرية فكانا يزوران بيت المسيو دورميز - مدير ادارة المدرسة الجديدة - مرة في الاسبوع وكان للمسيو دورميز فتاة رائعة الحسن تدعى سيسل بسامة الثغر ، طالقة الحيا ، ناضرة الصوت والبدن ، ذات عينين ساحرتين سوداوين وشعر مجعد وشفتين قرمزينتين دقيقتين ،

حادثها الشاب وحادثته ، وكان يعد نفسه قوياً فاعجب بحماها أعجاب ملاحظة وفكر ولم يحفل به طويلاً . . . ولكن تعدد الزيارات والجلسات والاحاديث وعزلة الحياة القروية ، وتشابه مناظرها ، كل ذلك ولد في صدر بنوا شعوراً بالضجر كان لا يحس به على الاطلاق ساعة أن يقع بصره على محيا سيسل البرى .

أما بنوات فقد أدركت بسليقتها أن فؤاد الشاب بدأ يتحرك ويلين . وانه جاف
حزين بالقرب منها ، رقيق شهيد يقرب سيسيل . فأحبت أن تزيد منها وأن
تدنيه من النسيم بقدر ما أقصته عنه فدعت الوالد وابنته لتمضية شهر من شهر
الصيف في ضاحية جميلة

ورسّل الجميع جدلين مغتبطين . وفي ذات صباح بينماهم يتنقلون بين المروج
الزاهية الخضراء ، والجو لامع ، والنسيم رقيق ، تقدم بنوا وتبعته سيسيل وأنادت
بنوات في سيرهما وجعلت تحدث المسير دورميز

حاول بنوا أن يكر راجعاً وهزم التجربة . حاول أن يقاوم . أن يبحث في
خفايا نفسه عن كرهه القديم للمرأة ، ولكنه لم يجد شيئاً . ساقته قدماه على الرغم
منه ، وأحس بظل الفتاة يلاحقه نفق قلبه وارتجف والتفت كالمدهول

رأى سيسيل تمشى متعثرة بين الأعشاب وحياتها الطلق يتلألاً . فقال إليها .
وأخذ يدها بين يديه وكشفها بهواه . تراجع قليلاً ولم تتكلم . بل أشاحت
بوجهها ، وغضت من بصرها ، ثم اختلج جسمها كله وأفلتت من الشاب وجعلت
تهدو رسالة إليه على أطراف أناملها سربان القبلات ١ .

وعاد إلى البيت فدخلت عليه بنوات فألفته جالسا تجاه صورة الفتاة يبكي . فلم
تتردد لحظة وأسهرت إلى منزل سيسيل وانباتها أنها قد علمت بكل شيء وانها
مستعدة لطلب الطلاق من بنوا والانفصال عنه اذا ما كانت سيسيل تحبه حقاً وتريد
أن تقترن به

ذعرت الفتاة اشد الذعر . والتبس عليها الأمر ، ورفضت خوفاً من أبيها الرجل
المحافظ المؤمن المتعصب الثرى ، عدو الطلاق والمطلقين ، الذي لن يسمح بزواجها
إلا من فئ موسى مستقيم يختاره لها بنفسه

عادت بنوات وملء قلبها الحسرة . وعز على سيسيل كيف تحب في حبها الاول
وبدأت تشحب وتهزل وتستوحش ، ووالدها يراقبها ويراقب بنوا ، ثم يقارن بين
حاليها وحاله ، حتى أدرك في النهاية سر الامر فسخط واستنكر وظنها مكيدة
دبرها الشاب للظفر بالفتاة الصبية واتخاذها خلية والتخلص من الزوجة الهرمة
فحرم على ابنته الخروج من البيت وفي اليوم التالي اصطحبها ورحل إلى القرية

وهو يلعب الساعة التي تعرف فيها إلى اسرة بنوا ا
دب اليأس في نفس الشاب . وازداد طبعه جمامة ونفورا وتلفت حواليه
وإذا بحياته قد خوت من كل جميل ورقيق ، لا أمل ولا عزاء ، لا عطف ، ولا هوى ،
بل ركود فظيع ، جو مخنق ملبد ، ألم دائم هميق عزلة مفعمة بالهواجس
والخيالات ، وهذه المرأة . . . المرأة الطاعنة في السن المرأة التي أحبت
وقتلته ، تتألم هي الأخرى أمام عينيه ، تبكي وتطوف بغرف البيت ملثثة ، تود
أن تنقذه ولا تستطيع ، أن ترحمه ولا رحمة ، فتقبع في زاوية وتظل تنظر اليه
نظرات طويلة وتبكي

وبدأت السنة الدراسية وعادا الى القرية وخيل الى بنوات أن العمل سيصرف
الشباب عن الماضي وأنه سوف يهدأ فتقر هي أيضاً وتقضى البقية الباقية من
عصرها تؤاسية وتخدمه

لسكن الذكريات لم تبرح خياله لحظة وأنهما كه في العمل زاده جفوة ومرارة
فبدأت أعراض الضعف العصبي تبدو عليه واضحة مقلقة . فاضطربت المرأة ،
وساورها المخاوف ، وعادتها لوئتها القديمة ، فكانت تخاطب نفسها في وحدتها
وتهدئ ، ثم ترسم لها أفكارها صوراً مخيفة فتصرخ وتستغيث ،

وانها الجالسة بالقرب منه ذات يوم ، واذا بموزع البريد يسلمه خطاباً أبيض
ناصعاً لم يلبث أن أفتضه وألقى عليه نظرة حتى دفع به الى بنوات وصاح متأوهاً
بصوت ممزق مخنوق

علبت المسكينة أن سيسيل قد تزوجت ، وان آخر أمل للشباب قد زال ، وأنه
لولاها ، لولا وجودها ، لولا ضعفها ورضاها بالحياة معه لسكان الآن ينعم
كالآخرين بالمرأة التي أحب ا

استولى هذا الخاطر على ذهنها ، واحتل كيائها ، وبات كمارض جنوني
لاغنى لها عنه ، تشبث به وتتحدث عنه ، وتضعه نصب خيالها وتعذب نفسها به
ويقوض جسمها جزءاً فجزءاً ويهجرها إلى الشيوخة
جاءتهما الانباء أن سيسيل قد رزقت غلاماً فبنتا وانها سعيدة وتتمنى لهما كل هناء

فلم يضطرب بنوا ولم يتكلم بل لاذ بصمته وارتقى في العمل
أما بنوات فقد رزحت تحت هذه الكوارث المتعاقبة وأصيبت بالصمم
والشلل فكان يأتي الشاب ويجلس عند سريرها ويقراها في كتاب أو يغنيها
أنشودة . أو يتكلف الابتسام والضحك أو يلوى بوجهه فتتهمر من
شؤونه المبرات

وماتت الشهيدة بنوات عشية يوم مقرور ولم يشيع جنازتها أحد فدفنها بنوا
ولما أن أهالوا الثرى على التابوت أحس الرجل أن قلبه يتقطع فعاد مطرق
الرأس ، زائغ العينين ، يتهدى ، ويضرب في الأرض لمعتوه !

ودع القرية واعزم الالتحاق بمدرسة أخرى وكان لابد للقطار الذي استقله
أن يقف بمدينة (نيم) حيث تسكن المرأة التي أحبها . . .

لم يستطع المقاومة ونزل من القطار واتجه صوب المنزل وصعد الدرج ودق
الباب ثم فكر بغتة في الهرب . ولكن الباب فتح وأبصر أمامه الخادم تحمل طفلين
أحدهما يشبه حبيبته كل الشبه ، فأتى وقبلهما وسأل عن صاحبة الدار فجاءت
سيسيل تتخطر وتضحك وقد امتلأ بدنهما ، وازدهرت قسماتها ، وأضفت عليها
الانوثة السكاملة حلة مجد ساحرة

دهش بنوا وتراجع . وانكر أن فتاة الأمس التي كان مدلها بها هي نفس
أمرأة اليوم

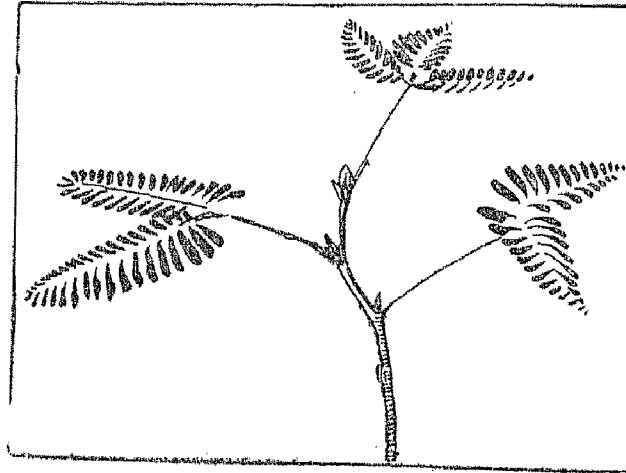
شاهد بعينه كيف أحالها حب رجل آخر امرأة أخرى ، قص عليها خبر وفاة
بنوات فتظاهرت بالحزن ورمته بنظرة شفقة ساخرة فغلى الدم في عروقه ، ولكنه
تمالك نفسه وقام لفوره فودع سيسيل وانصرف

رجع إلى القرية ، وظل يمشى على غير هدى . يحملق في الشوارع كأنما هو يراها
للمرة الأولى ، ويتطلع إلى المارة كأنما هو يفتقد بينهم عزيزاً كان بقربه الساعة !
لم ينظر إليه أحد . لم يلتفت إليه انسان . أحس بنفسه وحيداً شريداً لا حياة
ولا أمل !

خسر كل شيء . المرأة التي أحبتته والمرأة التي أحبها . أجال طرفه في الفضاء
نخيل إليه أن الطبيعة لم تخلق لأجله ، وأنه لابد مقضى عليه ، فاتجه صوب
منزله ، ودخل الحجرة التي كانت تعيش فيها بنوات ثم وقف لحظة بالبهوت
وتأمل جدرانها وأثاثها ، وجلس على المقعد الصغير يفكر ، وحانت منه
التفاته فأبصر صورة الفقيده محذقة فيه تبسم إليه أصفى ابتسامة وأحلاها
فصرخ صوتاً فظيماً . وقام من فوره فخلع ملابسه وتقدم الى الباب فأغلقه
وأحسكم رتاجه ...

ثم تمدد على الفراش وحاول أن ينام ! .. مرت بضع ساعات لم يسمع فيها
أى صوت ولكن عند ما دقت ساعة القرية ثلاث دقات سمع شبه عويل غريب
ينبعث من جوف الحجرة وصوت شيء يسقط على الارض ويدوى فى الظلام
دويًا مفرعًا

وفى الصباح جاء رجال البوليس الى البيت ، وحطموا الباب ودخلوا فأبصروا
بنوا مشدوداً من عنقه الى حبل مهلق فى سقف الغرفة ، وقد جحظت عيناه ، وتدلى
لسانه ، واصفر وجهه وفارقه الحياة !



ثيريز راكين

Therese Raquin

لاميل زولا

اميل زولا من أكبر قصصى فرنسا وهو زعيم مذهب «النااتورالسم» أى رسم الحياة من ناحية الطبيعة المحضة . ففنه تصوير للغرائز وأطوارها فى جسم الانسان وعقله . وأكثر ما يهتم به أميل زولا درس شهوات الحواس . فالجوع والرغبة الجنسية والعمل الجثمانى وكل ما يتعلق بمطالب البدن ونزواته يجد فى هذا القصصى أمهر المصورين وأدقهم فالتحليل النفسانى والبحث فى العواطف المركبة ليس من شأنه . فهو يرسم أعراض الحواس فقط . ومعظم أبطاله من أفراد الشعب الخاضعين لحكم الفطرة . فالعقل المثقف المصقول بالمهارف والآداب هو الذى يخلق فى النفس تفاعلات عاطفية معقدة . أما العقل الشعبى العادى البسيط . فرجمه الغريزة . والغريزة هى مادة العمل الفنى عند زولا . وقصة « تيريز راكين » من أروع قصصه وأبلغها فى الدلالة على نزعتة الفكرية والفنية

أزقة مظلمة ضيقة موحشة . يشعر المرء فيها بضرب من الأسى يستولى عليه ويحتل فكره ويستحوذ على البقية الباقية فيه من روح الطلاقة والمرح

فى تلك الأزقة بيوت متداعية . مغبرة اللون صفراء تضرب الى الحمرة المكندة . تتناثر منها طبقات الجير رهوة زرقاء ، وتنضج جدرانها بالرطوبة المتغلغلة فى الجسم تشل المفاصل وتضاعف فى النفس ذلك الأسى

وكانت باريس اللاهية العاشية أبعد ماتكون عن هذه الألفة الخادمة الميتة .
فالمجون والاستهتار وشقى ضروب اللهو والغايات الحسان المتبتكات والحفلات
الداوية والمشارب والحانات السخيرة لم تكن أصدائها لتبلغ هذه الناحية
التي يحيم عليها ليل دائم وتعقد السكابة فوقها سحبا كثيفة

وكان يخل الى المتجول في هذه الاحياء انها قبر فسيح في فؤاد باريس المتقدم
يكاد يخمده ويبحث فيه برودة الموت الفاجعة

ولكن باريس لم تكن لتعيا بما يكتنف جسمها الناصر من جرائم . وكان
حياتها المصطخبة لا تنفأ تطرد سيل الاوحال كالنهر ينصب قويا هادرا يحرف
في طريقه كل شيء

في حي من تلك الاحياء كانت تسكن أسرة « راكان » المؤلفة من « كاميل »
وزوجه « تيريز » ووالدته مدام راكان

وكانت الوالدة امرأة عجوزا قد كل الشيب شعرها الخشن اللامع . طيبة
رحيمة . ذات عيني هادتين وجبهة ضيقة وتقاطيع بارزة فيها شيء من
الجلال الفاتن الصافي ينسكب على جثمانها فيؤثر في الناظر ويرسل في ارجاء
البيت نوعا من السكون

وكانت كلفة بالصمت تسير بخطى وثيدة متلصصة وتحدث الى ابنها وزوجه
في همس . وتنصرف الى شؤون المنزل وقبلتها العمل وحده وسعادتها النفسانية
القصوى في تأدية ما عليها من واجب دون تردد أو كلى

ولم يكن أحب اليها في الدنيا من ابنها كاميل فقد كانت تختصر لذائذ الحياة
في نظرة واحدة اليه . وكانت تسكد وتدأب في سبيل تمتعه بالراحة والرفاهية
وكل ما يمكن ان يحول أسه من رغبات وآمال

وكان كاميل شابا هزيلا تقضت سنو حدائته في الاوجاع والامراض وهاجته
مختلف أنواع الحمى والوافدات فكادت تجهز عليه

واسكن والدته لم تدخر وسعا في سبيل حمايته ودفع غائلة الموت عنه

وامتلا به من بين برائته . الا أن المرض كان قد هدد قواه وأنهك اعصابه
وحال بين جسمه وبين النمو الطبيعي . فظل نحيلاً قصيراً متداخلاً الاكتاف
جاف العود شاحب اللون تطل عليك من وجهه الصغير الوجمل عينان
كبيرتان تحيط بهما هالة زرقاء ترسل في النفس ذعراً مزوجاً بشفقة عميقة على
الشباب المسكين

وكان كاميل قد أشرف على الثلاثين وحياته الضئيلة الموزعة بين مرض
يملحه وآخر يوشك أن يهبط به جعلت منه مخلوقاً فاتر الهمة خائر العزيمة ،
أعز ما يطمح اليه فترات هدوء يقر فيها من تعب الحركة ، ولحظات حلم وتأمل
يسبح فيها ما شاء خياله الأجوف وما وسعت دماؤه الفاترة من أهواء
وأحلام

وهذا ما كان يزيد في عطف والدته عليه ورأفتها به وحبها إياه وافناء جهودها
في اجراء السرور على نفسه وتبديد ذلك الظل المخيف ، ظل الموت الغادر ، من
عينيه المحمومتين المدعورتين

ولم يكن له مثل أعلى غير احترام مهنة كاتب في مصرف فما زال بها حتى
بلغها فكان يهمل سحابة نهاره عملاً مضنياً شاقاً ولكن المظهر الباهر وحياة
المكاتب ووظيفة حساب محترم ، كان ذلك مما ينعش نفسه ويحفز فيه قوى
المقاومة والاحتمال ويشعره بأنه قد وصل الى ما تصبو اليه نفسه وما يمكنه
من أن يحظى بامرأة يرزق منها أولاد تقر بهم عيناه

وأقامت له أمه مأدبة حافلة يوم أن عين في منصبه ودعت إليها رفاقه
الموظفين وغامرت بزجاجات النبيذ المعتق وضعت بها عن طيب خاطر وانصرف
جميع المدعوين وقد اكتظوا بأشهى الطعام واستمتعوا بلذيذ الشراب ولعبت
برؤوسهم نشوة الخمر فجهلوا يتمدحون بكرمه وسخائه ودماثة أخلاق والدته
ورقة ابنة خاله تيريز التي كانت تقوم على خدمتهم وتسكب لهم الخمر وتسامرهم
وتضاحكهم وهي لا تخرج عن حين الوقار والحشمة ولا تنزل عن إلبائها الرصين
وتحفظها وهدوئها

وكان والد تيريز قد توفي من زمن بعيد في حملة من حملات الاستعمار في إفريقيا فعهد بتربيتها الى عمته والدته كاميل فأوت الفتاة في بيتها واعتنت بتأديتها عناية بها بابنها ولم تبخل عليها قط بشيء.

ونشأت الصبية بجموار الشباب في منزل واحد والفت الحياة بقربه وشاهدت عن كثب طلعتة الدميعة ولاحظت جمائه المشوه واعتادته في اعتادت تلك الحياة الراكدة الآلية تنقضى بين عجوز وادعة صامته تسعى الى العمل بخطى حذرة . وشاب واهن الأعصاب محطم الجسم متجهم عابس حزين لا يلبث أن يدخل البيت حتى يستلقي ويشكو ألما في المعدة أو الصدر ويلتمس الى الصبية أن تعالجه بشراب ساخن يوقظ حواسه وينعشها ويلطف من حدة سعاله الخشن

وكان ان بلغ الفتى سن الرشد ولم يكن قد أحس من نحو تيريز بأية عاطفة ولم تستفزه اليها محاسن جسمها النضير ولم يشعر بأية جارحة فيه تستيقظ وتهفو لمراى ذلك الشباب الحى

وكان هذا البرود الصارخ في تصرفاته واعراضه التام عنها وتأففه وعجزه وجوالشلل المضايق المرفرف دواما حواليه ، وانكماش العجوز وهوودها يدفع بالفتاة الى كتمان أفكارها ومنازعها والرضاء بعيش الخول والحسرة وانتظار ما يمكن أن يمن به عليها الزمن من نعيم طالما عللت به نفسها وطالما أمضها وأقلقها وغلب الأرق على أجفانها وقلبها في فراشها حيرى لا تدرى فيم تفكر وما تطلب ولا الى أى لون من ألوان السعاد تصبو

ورأت العجوز أن الحياة تفر منها على مهل وأن وحيدها وسلموها سيصبح عما قريب ولا أنيس ولا معين فاشفقت عليه من عزلة لا قبل له باحثائها وأضمرت أن تزوجه من تيريز التي كانت تشقها ثقة عمياء وتظن أنها قد غرست فيها من خلاها الطيبة واخلاصها وحبها العمل ما يكفل سعادة ابنها وتأسيس أسرة هائلة لاتقوى عليها صروف الدهر وعاديات الزمن

وخاطبت ولدها في الامر فلم يمانع وفانحت به ابنة أخيها فراححت واجنسة

لا تشعر بأى دافع يدفعها للرفض أو القبول ، للحزن أو الفرح . كأنما اقترانها
بكامل كان . كارتبة مسطورة لها فى لوح المقادير مهما ناضلت وأعالت فعبثاً تحاول
ردها . وهل أبقت لها حياتها الدليلة أية همة تحفزها الى النضال ؟ وهل دماء شباب
متقد تلك التى تسرى فى عروقها ؟ وهل خلجات امرأة فتية تلك التى تحسها ؟ وهل
هى امرأة كبقية النساء لها ما هن من عواطف ومشتريات ؟

لا . ان الحجر الصلد هو صدرها ، والينبوع المجفف قلبها ، والمرمر البارد
جسمها والذهول المعذب الحائر مادة حياتها . فليس لها الا ان تخضع وتسلمت
وتعنو

ومدت المائدة الكبيرة ودعى الموظفين والجيران وفتحت ، مرة أخرى
زجاجات النبيذ والشمبانيا

وأترع المدعوون كثووسهم فى صحة العروسين . وكانت تيريز جالسة قرب
زوجها جامدة مبهوتة تسرح فى الجميع أبصارها فتصادف وجوها مشرقة وشفاهها
باسمة ثم تستدير قليلا وتتحول الى كاميل وترمقه بنظرة فاحصة فاذا هو مصفر
اللون باهته . يضحك ضحكات طويلة بلهاء ويحجب على تمنيات رفاقه بعبارات مزرية
تافهة . فتحنى رأسها عياء وتشور فيها مختلف العوامل من غيظ وكمد وأسى فتشيع
بوجهها وتأخذ فى مخاطبة احدى المدعوات وتمعن فى القهقهة خشية أن تنفذ المعجوز
ببصرها الحساد الى قرارة نفسها

وانصرف المدعوون وقامت المعجوز فقبلت ولديها ودعت لهما بطول العمر
ورخاء البال وتركتهما فصعد الزوجان الى مخدعهما

وكان لمدام راكان المعجوز حانوت خردوات عند مدخل البيت تظل فيه طيلة
نهارها تلاطف الزبائن وتستدرجهم وما تزال بالبخلاء منهم يساوونها وتحاورهم
حتى تظفر بهم فى النهاية وتبيعهم بضاعتها رغم أنوفهم . وكانت تيريز تنصرف
لشؤون البيت والمعجوز لحانوتها فلم يكن للمرأة الشابة سمير غير العمل لا يفتأ
يتسكّر على مر الايام ولا يخفف من وطأته غير مقدم الزوج عند الظاهر وجلوّسه

للطعام بين زوجته ووالدته يحدثهما عن نوادر الموظفين وأسرار بيوتهم وما يحكيون به جميعاً من علاوات وترقيات ولم يكن تأميل ليعرف في العالم شيئاً غير هذا ولا دار في خلد ان حديثاً آخر قد يسكون أفكك من هذا الحديث ، ولا أحس لحظة ان ما يعود عليه باللذة قد يضجر الغير ويضايقهم الى حد الألم وكانت والدته أسعد ما تسكون بحكاياته . الا أن تيريز كانت تتألم وتورد الطمام ازدرداً وقد خلقت أفكارها في اجواء مترامية بعيدة تبدو فيها الفينة بعد الفينة أطياف عابرة غريبة . . .

وبدأت تلحظ في عناد هنات زوجها وتعددها عليه وتحاسبه بمقتضاها وتزيدها الوحدة اهتياجاً وضجراً فتغلو في نظرتها اليه وحكمها عليه وتذهب في تأويل أعماله شتى المذاهب وينتهي بها الامر الى ازدراءه واصطناع الادب الجاف في معاملته وكانت تتبرم باوجاعه ولا طيق منه انه لا يكاد يقوى على مصارعة النسيم في صبيحة يوم ناضر ولا يستطيع أن يخطو خارج البيت خطرة واحدة اذا ما عصفت الريح بالأشجار ودوى الرعد في السماء وانهمر المطر وتهاوت قطع الجليد ولم تكن تيريز على جمال عظيم ولكنها كانت بضرة الجسد مليئة التقاطيع عريضة الاكتاف ناهدة الصدر ذات عيدين براقتين وفم صغير نأى مخضب بحمرة دامية تلمع على الشفاه الغليظة المتدلية في شره وحدة وغضب مكظوم ولم يكن تأميل ليصير من هذه الفتنة شيئاً ولا كان فيه من مدخر القوى ما يحرك به عواطف زوجته ويضرم جذوة الحب فيها . وأحست المرأة أن دعوتها الحارة لا تصادف منه اذناً صاغية ولا تظفر بنظرة واعية فذب الياس المروع في نفسها وخالت البيت سجناً والعجوز حارساً والزوج جلاداً ولم تكن العجوز على ذكائها وخبرتها لتستطيع أن تستشف الواقع بل هي لم تابه لذلك ولا أخطرتة على بالها اذ نفوس الغير كانت تتراءى لها طيبة مغلصة كنفسها فالفضيلة التي تسكن قلبها هي التي كانت ترى من خلالها نفوس الآخرين وتقدرهم وتحبهم وتحنو عليهم جميعاً كابنائها وابتعدت شيئاً فشيئاً حرارة المرأة الصبية وقرت دماؤها وأظلم السكون في

عينها وشاع فيها ضرب من التبلد والسهوم فأخذ جماها يذبل وغار خداهما وانطفا
بريق وجهها واستحالت نضرتها الى شحوب وعصبيتها النشطة إلى تواكل ورخاوه
فهادت لا تعنى بزوجها ولا بعمتها ولا بالعالم .
وباليت القدر أن قد حبا تيريز المسكين بطفل تحوطه بعين عنايتها وتفيض
عليه مما يحتبس في صدرها من عواطف لا تجد منصرفا فتجيش وتعلو تكاد
تخنقها خنقا

ولكن هذه المرأة القوية البنية الطامحة للآيناع والازدهار لم تسكن لتستطيع
برغم شقائها وجفافها وظمئها أن تنزل عن حيويتها العميقة المستكنة بين ضلوعها
الرابضة في حرقنيها ، تعد الساعات وتتجهين الفرص
وهكذا كانت الحياة فيها اقوى من الهدم المنتشر حولها والامل اقوى
من اليأس

وكان يخيّل لمن يراها أنها مثال الصبر والقناعة ، والعقل الرصين ، والارادة
العاملة المتتدة ، والصفاء النفساني يحدوه واجب الاسرة ولا يعكره الفضول
الا ان صبرها وسكونها وكر الايام عليها دون ماحداث كبير او صغير ولد
فيها شيئا من الحقد الكمين ، والسكبرياء القاسية ، والاستهتار الخطر فهي تهيش
بالغريزة ومن اجل الغريزة . نهبا مقسما لتلك العوامل تشربها نفسها وتراض عليها
وتتخذ منها ملجأ لها ساعة الضجر والاشمئزاز

وجعلت تنمى في فؤادها تلك الغرائز ماشاءت لها العزلة حتى استولت عليها
واحالتها على مر الزمن مخلوقا منافقا غشاشا يصطنع الهدوء وهو يغلي ، يضحك
وهو يسخر ، يلاطف وهو يكره ، يقبل وكأنه يريد ان ينفث فيمن يقبله
سما زعافا يقضى عليه لساعته

اجل اصبحت تيريز مثال الخبث والمكر والدهاء . كماء راكد ملؤه الجراثيم
والحشرات او كقوة هائلة من قوى الشر اعدتها الطبيعة لتدمير نفسها والغير



وفي ذات ليلة أقبل كاميل فرحا متهللا متأبطا ذراع صديق له يدعى لوران وما

ان توسط البيت والتقى بوالدته حتى صاح فيها والبشر يعلو بحياة وذكرها بصاحبه
ايام كان غلاما يتردد عليهما فلمعت بغتة عينا الام وانبسطن اساريها وتقدمت
من لوران باسطة ذراعيها واحتضنته اسعد ماتسكون برفيق مخلص محبوب من
رفاق ولدها العزيز

وعرف كاميل صديقة لوران بزوجه تيريز وانبأها بما كانت عليه صداقتهما
أيام الحداثة من متانة وما تزال عليه

وجلس لوران واسرعت العجوز فجأت بزجاجة نبيذ وشيء من الجبن واللحم
واحتفلت بمقدم الشاب وطفقت تساله عن عشيرته وأهله وصحته ومهنته - فاجابها
انه كان قد احترف التصوير ولكن هذه المهنة قد لازمها البؤس فانصرف عنها
غير آسف وهو الآن يعمل كموظف في إحدى المحطات

فما ان طرق مسمع الزوج هذا الحديث حتى ازدهى واقبل على صاحبه يهنئه
ويفخر به ويعامله معاملة الالناداد ويعدده بان يدبجه في دائرة الموظفين رفاقه
الذين كان يعتقد كاميل انهم خلاصة المجتمع وزينة المجالس وصفوة أهل الفكر ...
وكانت تيريز جالسة عن بعد تلقى على الزائر الجديد نظرة بسيطة عارضة
وكان يتكلم وهي تنصت ثم تتحول بالرغم منها الى زوجها فتجدق فيه طويلا ...
ولم يكن كاميل ليستطيع أن يكف عن هذره ومجونه ولا أن يمتنع عن
السعال . ولا أن يغالب نفسه فيلاحظ حركاته المضحكة ولا أن يمتنع عن التمهيط
والتيجشؤ والبصق والقهقهة الفارغة

ولطالما حاولت تيريز أن تنبهه بايمامة خفية ولكنه كان لا يفهم أطوع
ما يكون لنزواته العابرة وانفعاالاته الطارئة يستمتع بها في غير محاسبة أو كلفة
أو اهتمام

ورفعت تيريز فجأة عينيها المستسرتين ورفعت أهدابها قليلا وتساعد الدم الى
وجنتيها وجعلت تسرح الطرف ملياً في هذا الشاب الغريب المدعو لوران
وكان لوران يناهز الثلاثين أسمر الوجه ، ضيق الجبهة ، غزير الحاجبين اسود

الهيئين ، في تقاطيعه خشونة ورقة ، مديد القامة صلب العود ينبعث منه ضوء رجولة يأتلق به الجو حوله ويرسل في النفس احساساً عميقاً بالاحترام والخوف والاطمئنان . وكانت تيريز لاتفتأ تحديق إلى يديه الكبيرتين الخليطتين والى عنقه المستنير وأشاراته المستقرة الهادئة وفه المريض المنفرج عن أسنان لامعة

وعلى الرغم منها كانت تنقل طرفها وتحط بأبصارها على زوجها كاميل فتزى شلوا كسيحاً يضحك ويلوح بيديه تلويحاً مزيجاً فكأنما شبح الموت والمنجل في يده يحلق عليه ويطوف به ويوشك أن يحصده حصداً في أقل من طرفة عين

وكانت الحياة الرحة الطليقة تصطبغ في أحاديث لوران وتترافع موجاتها مرغية مزبدة تكاد تغرق تيريز في احشائها وهى مائلة برأسها مرهفة اذنيها تتلقى العبارات القوية وتستمتع الى الأفاصيص الغريبة والنوادر الفلسفية مذهولة كن يشهد انواراً ملونة ساطعة بعد أن عاش دهرأ في ظلام . وكان لوران حلو الحديث رقيق العبارة حاضر النسيطة ولوعا بالحكمكيات المستمالة يفيض بها على سامعيه في صوت حار واضح رنان يمتلك على المعجوز مشاعرهما ويدهش كاميل ويخلبه فيفغر فيه ويظل يضرب ساقيه براحتيه وعيناه تدومان من فرط الضحك ، والسعال يكاد يهشم صدره . بينما تيريز تحبس أنفاسها وتقاوم كيلا تضحك وتراجع قليلا لتحديق الى هذا الرجل العجيب الذى ما أن أقبل حتى أقبل معه النشاط والحركة وسحر الرجولة وحنون الحياة

وأحس لوران أنها تستطيع الجلوس اليه وتستعذب سمره وتستورى نكاته وتبتسم له ابتساماً هادئاً مغرياً يشجعه على التبادى والاسترسال

وكان كاميل يرحب به أعظم ترحيب والمعجوز الطيبة تستريح أيضا الى فكاهاته وتجوذ عليه بكنؤوس الخمر دون حساب . فشعر كأنما أهل البيت في حاجة اليه وأدرك ببعيرته أنه قد أدخل السرور على قلوبهم وأن الضحكات القريرة لم ترن اصداؤها في جدران هذا المنزل إلا منذ دخله هو

فاعتاد خلطتهم واعتادوا رؤيته فسكان يزورهم كل مساء . يلعب كاميل الزرد
ويداعب العجوز ويتملقها ويخاطب تيريز في لهجة رقيقة عذبة ملاؤها الاحترام .
ثم يأخذ في قص أقاصيصه وسرد نوادره والجميع يقهقهون ما خلا تيريز
وأحست المرأة بكيانها يستيقظ ويتحرك والتهبت دماؤها واصطبغ خداهما
بلونهما الوردي القديم

وبدأت تطيل النظر إلى لوران . وتنفد ، وتطرق ثم تروح في شبه سبات
حالم طويل

ولما كانت تدنو منه كانت تعروها اختلاجات خفيفة مقلقة فتصاحف ويدها
ترعش وصدرها يعلو ويهبط ونظراتها تحوم حول العجوز مخافة أن تلاحظ
عليها شيئاً

وكان وجوده وحده يعذبها أشد عذاب اذ لا تستطيع الارتقاء عاياه وتقبيله
وإسناد رأسها الى كتفه

كل هذه التصورات كانت ترسل في أوصالها رعدة الخمي وتسمم اللحظات
التي تحظى فيها بالجلوس اليه

وأذكرك الرجل ذلك فلم يتورع ومالها على عواطفها
وكانت أشهى ماتكون غضارة يزيد اضطرابها في سحر محاسنها فتبدو كالغريق
يتخبط باحثاً عن حطام

وكان لوران يحسن الرسم بعض الشيء . ففي ذات مساء دخل عليهم حاملاً
لوحة كبيرة أسندها الى احدى زوايا الغرفة ثم أخطاهم أن في عزه رسم صديقه
العزیز كاميل

ففرحت الأم وهللت وصاح كاميل يهتف بالشكر
وجعل لوران يدير الطرف في أرجاء البيت عله يقع على الحجرة ذات النور
الصالح لمباشرة عملية الرسم

واستقر رأيه في النهاية على مخدع النوم فصعد الجميع اليه . وثبت لوران
لوخته على القاعدة وأجلس كاميل على مقعد بعيد وتناول قلمه وشرع يرسم في
حيطة واجتهاد وصبر

وكان قلبه يخفق خفقاناً عنيفاً ويده ترتجف وترك القلم بفتة على أن يعود
الى العمل فى الليلة التالية
وكان كلما انبثق وجه كاميل من جوف اللوحة ازداد إعجابه وإعجاب والدته
وحبيهما للوران

وفى الليلة الأخيرة وتيريز متكئة الى الباب تنظر الى ذراع لوران المتمشية
على اللوحة بحركات ماهرة تطلعت قليلاً بالرغم منها فابصرت محيا زوجها قد غمر
اللوحة وبرز منها وجعل يحدق فيها بهيئته الغائرة تين تحديقاً غريباً . . .
وأدار لوران اللوحة فما إن شوهده الوجه تماماً حتى ضجعت الغيرة بالهتاف
والتصفيق ورافعت أصوات الشكر من كل صوب وارتمى كاميل على صديقه
وأوسعه ضمًا وتقبيلاً

واستبقوه للعشاء وذهب كاميل لابتياح زجاجة من الشمبانيا ونزلات العجوز
تعد المائدة وظل الرجل واقفاً بقرب المرأة الجامدة المبهوتة
ورفعت عينيها ورمت به بنظرة عتاب وتقدمت خطوة وهى تتمايل
وترتعش . ففتح الشاب ذراعيه وأسرع اليها فتلقاها وطبع على فمها قبلة
طويلة محبوبة

وعرفت تيريز لأول مرة حباً جارفاً مكتسحاً كأعصار
لم تشعر بسعادة تضارع هذه السعادة فهى المقادير التى طالما ناصبتها العداء
افترت لها عن ابتسامه حلوة راضية وقدمت اليها الحب خالصاً عميقاً دون أن
تسعى اليه كغيرها من النساء

الآن فقط أحست هذه المرأة بالفارق العظيم بين الصحة والمرضى ، بين
الرجولة والضعف ، بين الحب المتبادل والحب المفروض ، الآن هى ملك هذا الرجل
بل هى قطعة من جسمه وروحه لاسبيل الى انفصالها عنه مهما قدر الزمن . ولم
تكن تخشى فى ذلك أى انسان فجنونها بسعادتها الطارئة ذهب بلبها وأنمى فيها
حاسة التمرد والاستهتار

وكان لوران على كلفه . ا دونها شجاعة وجسارة يحاول ان يلطف من حديثها ويسكبح جماعها فتهزأ به وترميه بالجبن وتخريه بالتمثل بها ولا تفتأ تقول له ان العالم كله مؤلف من عبيد حتى مساكين وانها هي وحدها القوة وهو وحده الجميل وإن غرامهما يجب أن يعيث بكل شيء ويسود كل شيء ولا يعيش الا لينمو ويزدهر برغم المصطلحات والقوانين ورغم عجوز تشرف على القبر وكسيح أجدر به الفناء

وأحست أنها ليست حرة وان ليس في وسعها الخروج متى شاءت واستقبال خليلها متى عن لها . فهاها الأمر وأيقنت أن أهل البيت مازالوا حراسا عليها وما زالت فيه أسيرة سجيننة كسابق عهدا . فامتلاّت جوارحها بالبغض الأثيم والنزعة الطاغية للتمرد والهدم . فعاودها الألم وعاودها القلق والاضطراب وذهلت لما ان شاهدت نفسها أتس حطاً مما كانت عليه وان السعادة لم تجدها نفعا ولم تنقذها بل على النقيض تشمرها الآن أبلغ شعور بأنها ذليلة وخاضعة لا تملك حق العيش وفق هواها صحة الرجل الذي استكشفت دنيا الغرام على يده

وما ان احتوتها هذه الفكرة حتى خيل اليها أن البيت قد أصبح جحيماً وزوجها شيطاناً رجيماً فلم تطق وأحست تمام الاحساس بأن الزوج هو العدو . وهو المستبد . وهو العقبة الكؤود . فجعلت تفكر . وتخلو بنفسها وتأمل . ودبت فيها روح الدسيسة والغدر ومرت بذهنها تصورات دامية فاجعة وأخذت تحتقر ذاتها وتسخر من كبرياتها وتعجب كيف أنها وهي الأبية الباسلة ترضى بهذا الذل وتسبح لمريض متهاك مصدور ان يحول بينها وبين الحياة !

والتقت بعشيقها فأعرضت عنه وألقت عليه نظرة شذراء . فبهت الرجل وجعل يتفحصها ويتساءل عن السبب . فما كان منها الا ان أقبلت عليه فجأة وصارحته بدخيلة نفسها فانتفض مدعورا وكاد يخر صعبا . فتراجعت وأخذت تعيره وتهزأ

به وتستنهض ميت همته وتزين له الحياة حرة من كل قيد . لادخيل ولاغريم
ولا واجب غير واجب الهوى

وصورت له عذابها في أبشع الصور واسترحمت وتضرعت اليه أن ينقذها وجعلت
تسرف وتفان في هبة نفسها كي تلمبه حتى تراخي الرجل وضاعت في وجهه السبل
وحار كيف يروغ منها وأذعن لها في النهاية

ولم يبق لتيريز من أمل غير هذا . وصارت لا تفكر الا في هذا ، وبات خيالها
مسرحاً رحباً لمعارك مفزعة وخارقة . تنام فتعلم بالخلاص . وتستفيق لترى يوم
الخلاص . ولوران وقد استولت عليه الافكار الجديدة التي أودعتها المرأة عقله
واحساسه يسكد ذهنه ويبحث وينمى ويتحين الفرص للقيام بالمهمة الفاجعة التي
عهدت اليه بها



وكان ان انفق الجميع على تمضية يوم من أيام الربيع في نزهة على ضفاف السين
فأعد كاميل عدته وارتدت تيريز أجمل ثيابها وخرج الاصدقاء الثلاثة يتضاحكون
ويتطارحون النكات ويتهادون

وكان الجو فاتراً وبالسما بعض السحب تتمزق شيئاً فشيئاً وتبددها هبات
الهواء . ولوران يسير بقدم ثابتة تتبعه تيريز ساكنة صامته تحديق اليه
آنأ بعد آن وترمه بنظرة معنوية وهي تضم شفقتها الحراوين وتبتسم ابتسامة
محرضة ساخرة

وكان النهر منبسطة أزرق هادئاً تبرز منه الموجات ثم تختفي والريح العائية
تقبل عليه فيسمع له شبه هدير أبكم مخنوق
وجلسوا على العشب وتناولوا ما جاءوا به من طعام وظلوا يحتسون الكؤوس
تباعاً والنسمات تداعب وجوههم

وتلفت لوران وغمز تيريز ومال الى كاميل وعرض عليه القيام بنزهة في
قارب صغير يسبح بهم على سطح النهر الصافي فتألفت عينا الزوج وصفق طرباً

وبرقت أسارير الزوجة ثم تبهمت بغتة واستدارت ولم تتكلم . ولم يتمل
لوران فقام لفوره ونادى نوتيا كان هناك ونزل الجميع الى القارب والمرأة
ترتجس وتسكاد تنثر

وانساب بهم القارب وهب عليهم نسيم ندى يحمل باعطار البحر وجعلت
تيريز تضحك ضحكات صفراء وتتحاشى وقع أبصارها على أبصار لوران .
وقطب العاشق جبهته ودنا من الزوج رافعا ذراعيه ثم تقهقر وقد
علت محياه حمرة ممددة . وكان النوتى قد ترك القارب لهم فاخذ لوران
يجذف بكل ما فيه من قوة والقارب يشق الماء ويجرى فى عرض النهر . ولما
ابتعدوا عن الرقباء تنفس لوران والقى على تيريز نظرة واذابها جامدة جمود
تمثال تحدى اليه تحديقا هادئا وقد التوت زاوية فمها ازدراء وكرها فلم يطق
ولمعت عيناه وتضامت شفثاه فتقدم بهض الشىء . وثخفر ثم انقض على كاميل
جأة وحاول أن يقذف به فى جوف البحر ولما أن شعر الزوج بما دبر له تجمع
كل ما فيه من حب الحياة فامسك بلوران وتشبث به وجعل يصرخ صراخا حادا
من عجاويناضل ما استطاع وتمسك من خصمه لحظة فقبض عليه من عنقه الغليظ وعصه
فيه عضنة شديدة فصرخ لوران واستثيرت أعصابه فاحتمل بكامل وهو يصيح
صيححات هائلة والقاه فى النهر

وعندها استغاثت تيريز واستغاث لوران وملاء الجو زئيرهما الفظيع واقبلت
القوارب على صياحهما فعدت بهما إلى الشاطئ وأسرع البحارة باحثين منقبين
حتى أبصروا الجثة المنتفخة الشوها طافيه على وجه المياه

واعتبرت الحادثة حادثة غرق و القتلة من عقاب القانون . وماعاد لوران
بخليلته إلى البيت وقص على الوالدة الشكى تفاصيل الواقعة ملفقة زائفة حتى تقلص
جسم العجوز وسرت فيه قشعريرة رعب هائلة وتهاوت على نفسها وراحت فى
شبه ذهول كذهول المجانين ثم انتفضت انتفاضات متوالية وجعلت تنوح وتبكي
بكاء الاطفال

وارتدت تيريز ثوب الحداد وقبعت في عقر دارها ومثلت دور الارملة المنكوبة وكانت لا تنكاد تبصر العجوز حتى تبتئس وتتنهد وتصعد الزفرات وترسل العبرات غزيرة حارة ، وخيم على البيت سكون لا يعكره غير انين الام المسكينة تقف بغتة وتتصور الماضي فتضرب اوجها بقبضتها وقلبها يتمزق والدمع يتفجر من عينيها

ولم تستطع تيريز أن تدعوا لوران لزيارتهم ولا أن تشير على العجوز بدعوته في مثل تلك الاحوال فانطوت على نفسها وانتظرت ما تجيء به المقادير ولاذت بال عزلة وجعلت من مخدعها ملجأ يقيمها شر العيون
ولكنها كانت عزلة مفقمة بالخلب والذعر ما لان تملككتها ثانياً حتى حفرت الهوة بينها وبين الراحة والاطمئنان

كانت تضطجع في فراشها فيخيل اليها أن جسم زوجها ممدد بالقرب منها يضحك ويهذى وعيناه تقدحان الشرر يتوعدها باصبعه الدامية ويلعن اليوم الذي اقترنها فيه

وعندما تجلس على المائدة كانت تراه وقد اخذ مكانه منها يلعب الآنية كمعادته ويومئ الى أمه مشيراً الى زوجته وهو يبتسم

وعندما تنام تهاجمها الاحلام والرؤى ويأتي شبح داميل فيجثم على صدرها ويهزها ببديه الضامرتين هزاً عنيفاً ويصرخ فتصرخ هي أيضاً وتستفيق مذعورة واذا الظلام يحيط بها والريح تصفر في الخارج فيهلل لها قلبها

ولم يكن عشيقها أهدأ منها بالاً أو أرسخ في الاجرام قدماً . فالشبح كان يطوف به ويلزمه ملازمة الظل ، لا يكاد يخلو بنفسه حتى يشعر بنار محرقة تلهب عنقه فيتجامل حتى المرآه وينظر ، ينظر الى القرحة المتوهجة التي احدثتها اسنان القاتيل الحادة وهو يناضل ويستغيث

وعندما يشتد بلوران الخبال يخرج هائماً على وجهه ويتجه الى الحانة فيشرب حتى تخور قواه فيرجع الى بئته وقد ظن أنه طرد الشبح واستراح ولكن القاتيل يعود فيتمثل له في كل مكان . في زوايا الغرفة ، وبين أكوام الثياب ، في رأسه

المتأجج ، وعلى فراشه الخشن العميق فيقلب ويتلوى كمن صرخته الحمى أو كمن
به مس

وخيل للعاشقين أن بعد الواحد منهما عن الآخر هو السبب في هذا الجبن .
وظانت تيريز أنها لو استحوذت على حبيبها وعاشت معه فلا بد أن تزول الاوهام
ويرجع الى الحياة رونق الماضى وبهاؤه

وأمنعت في التظاهر بالغم والحزن واحتالت على الامر جهدها فاشفق عليها
الاصدقاء ونصحوا العجوز بانقاذها من مخالب الوحدة وتزويجها وعز على الوالدة
الشكلى أن يدخل البيت غريب يحل فيه محل ابنها ولكن حبها تيريز اقنعها بضرورة
التفضحية . فاستمعت لنصح الناس ورضيت بتزويج قرينة الميت ممن كان أعز
صديق عنده وأوفى حبيب . . .

وكانت حفلة العرس الثانية وكان المرح يدوى في أرجاء البيت والضحكات
ترن رنينها في أذنى الوالدة فيما ودها الحنين وتنوء بها الذكري فتعجش بالبكاء
وهى لا تعى

وانصرف المدعوون وقبل الزوجان جبهة العجوز ودخلا مخدع القتيل
وما أن وطأته أقدامهما حتى افلتت تيريز وأصعدت صوتا أشبه بالعواء
وأشارت بيدها المرتجفة الى الزاوية فتتطلع الرجل وإذا الشبح هناك يحدد فيهما
بصره اللامع ويبسم

فضرب لوران المنضدة بيده حنقاً واستلقى بجوار تيريز وماهى الا هنيهة حتى
دبت فيها الرعدة وأجفلت فحلق فيها لوران ومد البصر أمامه وإذا هيكل
القتيل مسجى على السرير مبللاً بارداً جافاً . وحانت منه التفاتة الى الحائط فابصر
الصورة التى رسمها للزوج سوداء مظلمة تبرىق فيها العينان ساخطتين مهددتين .
فاستشاط غضباً وارتدى على زوجه يابوكها بين ذراعيه القويتين ويكاد يطحنها طحناً
ولكنها دفعته عنها وقفزت وملء نفسها بالبغض والاشدأزاز فماله
مارأى وكبر عليه ان المرأة التى فى سبيلها خان وقتل وتعذب تقصيه عنها على هذه
الصورة . فجعل يستعطفها وهى تفر منه وتستفطعه وتصرخ . فكاد يجنوايقن

إن احلامه قد اجثثت من اصولها وحياته قد انهدمت من اساسها وحبيهما القديم
قد ذوى ومات والحد في القبر الذى دفن ، فيه القتيل

وأخذ لوران يبكى بكاء مرآ

ولسكنه ما إن شاهد ضوء النهار يغمر الحجرة فجأة حتى صاح صيحات
من عجة وراح يمزق مندبله باسنانه ويكاد ينتزع شعره من جذوره وقد خيل
اليه ان النور كشف السر عن جريمته وأرشد الناس اليه وأنه افتضح .
فجعل يطوف بالغرفة باحثاً عن مخبأ يأوى اليه والشبح يلاحقه والقرحة تلمبه
والنافذة المفتوحة ترسل اضواءها الى مخيلته أطياف عمالقة مربدى الوجوه غلاظ
السحن على أكتافهم شاربات رجال البوليس يمدون أيديهم وينحنون عليه ويحتاطونه
ويجرونه بالرغم منه الى هناك . الى حيث الغرفة الضيقة الباردة المظلمة ذات القضبان
الحديدية والفراش القذر والجدران السوداء.

ولاحت في رأسه هذه الصور والى زوجته تتطلع اليه مستفسرة حائرة . فدنا
منها وجثا عند قدميها وجعل ينظر اليها نظرة عابد ويلتمس ان تجود عليه
بجملة أو اشارة أو فكرة تخفف لوعته وتعيد السكينة الى فؤاده وتحى فيه رجولته
ولكن عدواه كانت قد سرت اليها فلم يبصر أمامه غير أنثى ضعيفة واجمة
تحوم حواليه منتظرة قراره وقد غاض فيها معين القوة وانطرحت على السرير
تبكى وتئن

راعه من نفسه ومنها ان تبطش بهما الاوهام على هذه الصورة ولم يجد
ليأسه منصرفاً الا فى التشكيل بها فاهانها واستنذها فكشرت عن انيابها وثار
فكاً نما غرفة العرس الجميلة الوادعه قد استحالت فضاء خرباً يضح فيه رهط
من المجانين

وعصف بهما الحقد المتبادل ذات يوم فشجر بينهما عراك عنيف وجعل كل
منهما يحمل الآخر تبعه الجريمة ويتهمه بها ويلومه عليها ويصد عنه ويحقره ،
وكانت الأم قرب الباب وطرقت مسمعها الصرخات واللعنات فدخلت على

الزوجين وابصرتهمما كوحشين يهيم كل منهما بافتراس الآخر فنكصت على عقبيهما ولم تصدق نظرها ثم عادت تنفرس فيهما فشاهدت الزوج يشيح بوجهه غيظاً ووجلاً والزوجة تشحب وتختلج فادركت وعراها ذهول وترنحت قليلاً ثم هوت على مقعد وقد انعقد لسانها ودب فيها الشلل . واذن فقد اغتال الصديق لوران حياة ابنها المحبوب وقد حرضته على ارتكاب الجرم تيريز المخلصة الطيبة وقد كانت عشيقته منذ سنين تخدع الله والناس وتحوك المكيدة صامتة تحت جناح الظلام . . .

لم تشعر الوالدة بعسف القدر كما شعرت به الآن وهي مشاولة بكاء لا يستطيع أن تستنزل عليهما اللهنة ولا أن تشكو امرهما الى القضاء .

غير ان حاسة الانتقام طردت من قلبها كل عواطف الرحمة فكانت حدقاتها تبرق حقدًا ، وعضلات وجهها تتشنج حسرة وغلا وارتياب الثأر يمددها بحياة غريبة تقاوم المرض وتطيل الاجل وتصمد للموت

وأصبحت العجوز في حاجة الى من يهولها ويخدمها ويرعاها ليل نهار فكان لوران يجر عربها الصغيرة ويأتى بها الى مخدعهما ثم يتركها في الزاوية هناك وكأنما أحساس الزوجين بهجر الام وشللها ، ويقينهما بانها عرفت جليلة الامر ، أراحهما من مهام والخوف والحيطة والحذر . فاستسلما لميولهما طاماعة وجعلا يتذاكران الماضى ويصب كل منهما جام النعمة على الآخر ويتراشقان بهجر القول ويتصايحان ، وتيريز تسكيل الشتم لزوجها فيهب من مكانه وينقض عليها ويجذبها من شعرها الطويل ويوسعها ضربا ولسكا والعجوز تنظر اليهما في هدوء هائى .

ولم تبق بينهما من رابطة غير رابطة البغض واضحى لوران لايعبأ بامرأته بل أن سعادته كانت فى الفرار منها الى حيث تطرد الخمر خيالاته وتنسيه بعض مايعانيه من ألم

أما هي فقد كانت تنقرز من مرآه كأن به جربا وتخرج من بيتها ترويحاً للنفس فتلتقي باصدقائها القدماء من شباب الحى فتعقد معهم الصلات وتهتك

وتبذل وتجود عليهم بما يرغبون دون ما حياء أو خجل
وانطلقت تحبه كل عرف ومصطلح ، لاناصح لها ولا رادع ، تبحث عن
الراحة والنسيان في بؤر الدعارة كما يبحث عنها الزوج في الحانات
ألا أنها كانت تعود اليه صاغرة . مقيدة به ، مشدودة اليه ، كما نما الجريمة
التي اقترفاها قامت في قلوبهما مقام الحب وستظل جامعة بينهما الى الأبد
وضاقت بهما السبل وأعتيها الخيل فلا الخر ولا التشرد كان في وسعه أن
يحميهما من تبكيت الضمير أو يقصى الطيف عنهما ميعات ليلة واحدة تذوق فيها
أجنانهما طعم الرقاد البريء

ويا لها ساعة رهيبية تلك التي فكرت فيها تيريز أن الجريمة الأولى تعبد
الطريق لسلسلة من جرائم أخرى ، وأن لوران بات أضعف من كاميل وأن في
وسعه قتله والتخلص منه كما في وسعه قتل العجوز البكاه المتشحة بالسواد ، الرابضة
في الزاوية تنذرها بخيبة المسعى وسوء المصير

وكذلك فكر لوران في أن ينفذ عنه عبء هذا الغرام المشؤوم وأن
يستأصل من جسمه وروحه شائفة الداء العضال . وأن يتحرر بازهاق نفس أخرى
نفس تلك المرأة التي يسرى أريج بدننها الحمار من عروقه مسرى الدماء ولكن
ما ان لمح حل منهما في بصر الاخرية القتل حتى ازداد حبهما الغريب قوة وشعراً
في صميم كيانهما أن الماضي كله يستفيق بغثة ، ويستدعيهما اليه ويبسط ذراعيه
لاستقبالهما . ويلوح لهما بالذكريات المعسولة التي طالما رشقا منها رحيق الحب
وعصير الحياة فاحس لوران أنه لو قتل تيريز فنفسه يقتل . واحست تيريز أنها
لواعثت على لوران فستترد اليها الطعنة لاحالة وأدرك الزوجان ان نجاتهما في
الحب وحده ولكن كيف السبيل الى الحب وجثة القتل بينهما ولعنة العجوز تخلق
عليهما ، والرعب يهد منهما القوى ، والاشمئزاز الحاقد الدفين ما يزال يهدبهما
وجال في رأسيهما خاطر الانتحار وعمدت تيريز الى سكين كبيرة فشحذتها
واخفتها بين أكوام ثيابها ريثما تحين الساعة التي تجدد فيها الشجاعة الكافية لاغمد
النصل في احشائها . وانطلق لوران هائماً على وجهه يوسع الخطى كحيوان مطارد
مخبول حتى استقر به المطاف في منزل أحد الصيادلة اصدقائه ولما رجع الى البيت

فى المساء كان قد سرق زجاجة صغيرة فىها سائل غريب يومض فى النور ومهضات خفيفة
وجلس لوران ومال برأسه التعب الى كتفه ونظر الى زوجه الحبيبة للبغينة
الى المرأة الجميلة الدميمة ، الى المجرمة الفاتنة المنكودة ، نظرة أسف ولوعة ووداع
ثم طلب قدحا من الماء فجاءته به على مهل فامسك به وفتح الزجاجة وصب السائل
ورفع القدح وأدناه من شفثيه وشرب وعندها صاحت الزوجة صيحة منكروه
وارتمت عليه واختلطت القدح من يده وجرعت ما تبقى فيه حتى آخره

وفى أقل من لمح البرق سقطت الجثمان كأنما أنقضت عليها صاعقة واستقامت
تيريز لحظة ثم هوت على عنق حبيبها وقد الصق فمها الشره بالقرحة الدامية التى
خلفتها اسنان القتل

وكان ضوء المصباح الضئيل يلقى عليهما ظلا أحمر مرعشاً خفيفاً

وظلت الجثمان على الارض طوال الليل والمعجوز المشلولة جامدة العضلات
متألقة الاسار يرتدق اليهما وتروى عينيها منهما ، وتسحقهما بنظراتها الطويلة المتشفية



اكاذيب

Mensonges

لبول بورجييه - عضو المجمع الادبي الفرنسي

يمتاز الادب الفرنسي عن الآداب الأوربية جمعاء بغريزة التحليل
النفسياني وفضائل الوضوح والمنطق والتناسب والاتزان التي نلمحها
في آثار أكبر ممثليه منذ القرن السابع عشر حتى يومنا هذا
وأن بول بورجييه لتتجلى في قصصه هذه الروح التقليدية العنصرية
في أشد مظاهرها ، فهو لا يهمه أن يسرد لك الوقائع التي تمر بأبطاله
قدر ما يحاول أن يميظ اللثام عن أسرار نفوسهم وحركاتها وتقلباتها
ومنازعاتها ناظراً إليها كما ينظر العالم النباتي الى أزهاره نظرة تلحق
الفن بالعلم وتجميل من الأدب باحثاً نفسياً ووصلحاً اجتماعياً
وهو في قصته « أكاذيب » يجتهد في أن يكشف عن خلق المرأة
العنصرية الولوع بالترف وعيشة البذخ وكيف أنها تبذل كل غال في
سبيل أن تحتفظ بنعيمها المسمى ولو على انقراض عواطفها

« رينيه فانسى » شاب في مقتبل العمر تملأ نفسه حرارة الصبا وتفيض مشاعره
برغبات الطموح . أديب ناشئ لا يزال به بعض الغرور ولكنه غرور يساعده
على تحقيق أحلامه فهو قد نجح في رواية كتبها للمسرح واشتهر بها شهره عظيمة
فتحت له صالونات باريس

لم يكن هذا الشاب بالرجل الذي عرك الحياة وكانت روحه ما تزال تحتفظ
بتلك السذاجة والبراءة الصبغانية الفاتنة التي لم تقوضها بعد عوامل الخيبة ولم تؤثر

في جحرها النقي لا الا لام النفسانية ولا حقائق الواقع المزرية . وهو في أول عهده بالشهرة كان كالضريح يبهره النور الذي انتشر فجأة حوله فلم يسكن يستطيع أن يتبين مدى أعماله ولا ان يحكم عقله على قلبه

وكان يعطف على فتاة ساذجة مثله وديعة في صفاء وصمت تحبه الحب كله وترقب بعين ملؤها العبادة والاعجاب تلك الهالة الرائعة التي تحيط بحبيبها وتغري به النساء

وكان مزمار الاقتران بها والميش معها عيشة هادئة موزعة بين الحب السعيد المظلمين واردة الممبل الفنى المقدس . غير أن « روزالى » لم تكن بالفتاة البلهاء . وكانت على الرغم منها تستشعر في صميم نفسها أن حبيبها قد تبدل بعض الشيء وأن الشهرة وذبوع الصيت والمجد الطارىء الخفيف وتهاوت الناس على التعرف إلى نابغ جديد كل هذه العوامل ربما أفسدت عليها أحلامها واستلبت منها قلب حبيبها

وكان القضاء الساخر قد أعدها لتكون فريسة له وكائناتها أحست في نفسها ذلك فلم تتمكن البتة من الاحتفاظ بالرجل الذي وهبته كل حياتها

وهبط به ذات يوم صديق له من الكتاب المشهورين يدعى « كلود لارشيه » ودعاه الى حفلة عند سيدة سرية من صاحبات الصالونات الكبيرة وأخبره باعجابها الشديد به ، وأنها جاءت خصيصا في قصرها بفرقة من الممثلين لتمثيل روايته التي طبقت شهرتها باريس . وأصبحت حديث الأندية المتأدبة كلها تردد الشباب أول الأمر ولكنهم أذعن في النهاية لنصح صديقه وذهب الاثنان الى قصر مدام مورين واستقبل رينيه بجميع مظاهر الحفاوة واحتاطات به النسوة متفحصات هامسات معجبات بهذا الشاب الصاعد إلى قمة المجد بخطى جبار

وكان رينيه خجولا نفورا لا يحسن آداب المجتمعات الكبيرة ولا يدري كيف وبماذا يجب أولئك النسوة على كل ما يدينه من أفانين المديح

والاطراء . وكانت هذه السداجة نفسها سر نجاحه السكبير من حيث لا يدري ،
بل كانت فتنتها تفوق سحرا وجاذبية فتنة الشهرة نفسها

ولاح لصاحبة القصر مدام مورين أن هذا الفتى مخلوق غريب وأنه ليس
على شاكله الرجال الآخرين الذين يؤمون دارها . فأخذت تلمحظه بنظر متفرس
ثاقب وترمقه في الآونة بعد الأخرى بهين ملؤها العطف والابتسام والتشجيع .
وزادها تعلقا به أن رأت النساء جميعا يخطبن وده ويحاولن استمالته بكل ما أوتين
من دعاية ورقة ودهام

وكان هو كالمبهوت يخيل اليه أن عالما جديدا قد فتح أمامه وأن حياة زاخرة
بالمال والجمال قد تفجرت بغته حواليه تسكاد تخمره وتنسيه بيئته وحبه
وعشيرته كلها

وفي ختام الحفلة بعد أن صادفت روايته من المدعوين كل اطراء تقدمت اليه
مدام مورين ودعته لزيارة خاصة في ساعة محدودة ويوم محدود

وخرج من لديها مسلوب الحول طائر اللب مشدوها بما سمع ورأى ، تبدوله
صورة تلك المرأة من خلل أحلامه وميوله كأشعة الشمس الساطعة تحرك
مولدات الأرض الخصبة البكر وتنبع أزاهيرها وثمارها

وكانت مدام ميرين امرأة ذات جمال رائع ، شخصية عميقة فيها من مفاتن
الانوثة ما يغوى رجلا كاملا فكيف بهذا الشاب الذي لم يعرف الحياة إلا عن
الكتب وأخيلة الشعراء . لم يستطع أن يفهم أى النساء هى ولا ماتكنه نفسها
من غرائز دفينه تجتهد بكل ما أوتيت من مهارة وخبث في اخفاء حقيقتها عن الجميع
كانت امرأة ولوعا بالترف خبيثة ماكرة هادئة في لؤم محترس رصين تظهر
في المجتمع بمظهر السيدة الفاضلة وتأتى في الخفاء كل محرم في سبيل أن تحتفظ
بمقامها بين أترابها وفي سبيل أن تنعم بالملبس الفاخر والجاه العريض مضحجة
بعرضها غير آبهة لأى وازع نفسى أو محتفلة بأى تبكيت ضمير مادام الكل يحترمها
وما دام صالونها ما يزال ملقى عليه القوم وسراهم . لم تأنف من أن تتخذ
لها عشيقاً هو البارون ديفورج ، رجل في الخمسين من عمره ، متمول عاطل ينقدها

ماتشاء عن سعة ويتمتع بجسمها الغض في الآونة بعد الأخرى كلما راق له ذلك دون ان يعبأ على الاطلاق بحجبتها الخاصة ، ودون أن يفرض عليها الأمانة له عالمأ حق العسلم ان امرأة كهذه محال أن تخلص لشيخ مثله ، ومحال أن تعطيه إلا على قدر ما يدفع لها

وكان زوجها فقيراً بالنسبة لعشيقها لا قبل له بتحمل نفقاتها يحبها حباً جماً ولكن خلقه الطائش وطيبة قلبه ومظهر قرينة المتحفظ المريب كان يمنعه من أن يخطر على باله لحظة أى شك في سلوكها

ولكنها كانت امرأة كبقية النساء يجتمع في قلبها حب المصلحة بحب الحياة وتتنازع نفسها عوامل شتى من الرغبة في التمتع بعواطفها والشعور بنفسها محبة محبوبة كما تستكمل سعادتها من ناحية المسادة وناحية الروح . وخيل اليها أن الفتى ربنه يمكنه أن يملأ ذلك الفراغ من نفسها وأن يشبع احساسها النسوى بذلك المطف الوجداني والاستمتاع الجنسي الذى لا تستطيع المرأة الا أن تطلبه مهما ابتسمت لها الدنيا عن زخرف ونعيم

ولكى تقع في نفس الشاب موقع الحب استخدمت كل ماتسكنه طبيعتها من مواهب في الكذب نادرة . فاحذت تتحدث اليه ببساطة وبراعة وتبدو امامه في حلة من الطهر والنقاء كعذراء ماتزال في أول عهدا بالرجل والحب . تروغ منه وتشجعه على التماهى . تمنيه تم تخيب أمله . أقدر ما تكون على التلاعب بقلب الفتى والتمسك منه بالاحساس الذى يحبه ، أى العفة والسذاجة والهوى المحالص العميق

ووقع ربنه في حبائلها وظنها مثال الكمال والظهر ، آية شعرية يستلهم منها وحيله

وشيداً فشيئاً بعد أن عذبه وتمنعت عليه وطبعت في نفسه تلك الصورة الرائعة الجميلة من شخصها هوت ذات يوم بين احضانه كأنما هي تهوى تحت سلطان حب جارف . فانتشى ربنه وخيل اليه أن رجولته وعبقريته وجهاله

ورقة حديته هي التي اهتمت المرأة هذا الحب وهي التي حققت له في النهاية السعادة
القصوى التي طالما كان يحلم بها...

* * *

تجاه شخصية هذا الفتي الساذج تقوم شخصية صديقه الكاتب كلود لارشيه
وهو رجل صادق النظرة إلى الحياة الا أنه حاد المزاج ملتهب الميول شهوى
الزعات ضعيف الارادة يعشق الممثلة كوليت ويدرك تمام الادراك انها تخونه
في كل لحظة ولكن خيانتها المطردة هذه كانت تشير فيه عاطفة الحب وتؤجج
شهوته فلا يلبث أن يقاطعها حتى تخدعة فتستفز غيرته فلا يستطيع أن يطفىء
نار تلك الخيرة الا بالعودة الى عشيقته وافناء حقدده وغله في محاسن جسمها
وكان كلود عبد المرأة تفعل به ما يشاء ، وكان لذلك يفهم المرأة ويعلم حقيقة
ما يجري بين صديقه ومدام مورين ، غير انه لم يحاول البتة أن يحول بين رينيه وبينها
لاعتقاده الراسخ ان الأديب أو المفكر أو الفنان يجب أن يدرس الحياة عن
كشبه ولا يخشاها ولا يفر منها ، بل على النقيض ، عليه أن يرتقى بجمعه في غمارها
فان تغلب عليها فاز وان دمرته خرج منها على الاقل وقد عاش واختبر وتألم

* * *

وازدهرت الدنيا في عيني رينيه . واضطرم في شرايينه دم الصبا . وشارفت
نفسه كل ماتكنه الانوثة المكملة من خفايا الاسرار الجنسية وما يشيع
فيها من حنان غريب تمتزج فيه الشهوة بالأمومة والحنو بالرقه المهبودة
الساحرة

وكان كالشبان السذج جميعاً يضي على حبيبته ما يحول بخياله من فضائل وما
تنزع اليه روحه من سمو . فكان لا يرى المرأة بقدر ما يرى شخصه ممثلاً فيها ولكن
كان سعيداً بها سعيداً بهبتها الكاملة ، سعيداً باخلاصها الطاهر ، سعيداً بكبريائه
ونصره مؤمناً بحبيبته كإيمانه بصلاح النفس البشرية للفضيلة والخير . واتخذ
لها وكرأ صغيراً في إحدى نواحي باريس وكانا يلتقيان فيه بمأمن من
العيون ويتبادلان هواهما بعيداً عن ضجة المدينة في هدأة الاصيل والشمس ترسل

حتى فراشهما آخر اشعاتها كأنما هي تودعهما الى حين
وكانا يلتقيان في المدينة ايضاً ، يتسايران في الشوارع المنهزلة أو يدخلان
متحف اللوفر متنقلين بين الآثار الرائعة التي لاتحدثهما الا عن الجسد
والحب والجمال

وكانت حين تقابله تصنع الفرحة القرير والنشوة المتأملة والحلم الرائق
المستفيض وكأنها تخلص الى ذراعيه من آلام مبرحة تعانيتها حيث تعيش .. وبينما
هما يتحداثان ويتناجيان كانت لاتفتأ تلاحظ حركاتها وسكناتها وتراقب كل كلمة
تخرج من فمها . وتعتمد على نفسها السمكات مخافة أن تبدر منها بادرة تكشف له عن
دخيلة أمرها . وكانت لذة الكذب والرياء هذه أفعل في احساسها وأشد وقعاً
وأبعد تأثيراً من لذة الحب نفسه . بل هي في الداخل لم تكن قد نزعته
الى الحب الا لتستمرى فيه لذة الخديعة التي طبعت عليها وسرت في عروقها
مسرى الدم ، فهي تكذب وتغش وتخون وترائي كأنما هي تؤدي وظيفة عضوية
في بساطة وعدم احتفال رهيب . ولم يكن ليخطر على بالها أنه قد يتألم يوماً
بسببها بل لم تكن تفكر البتة أنه يمكن أن يكون للألم وجود في نفسه
مادامت تبهه جسمها وتسعده بهذه الهبة ساعات ... وكانت هي تكره الألم
وتحاربه وتخشى منه على جمالها وسلطانها متاهبة على الدوام لخلق فؤادها دون
رحمة يوم تشعر أن الحب صنو الألم وأن القبلة الحلوة قد تحفر الطريق أمامها
نحو الشيخوخة . هذا الاحساس كان بمنزلة درع تنق به صدمات العاطفة
وتسيطر عليها اذ غرامها بالمظهر الفاتن كان أعلق باحساسها من ولعها بالحب
نفسه ...

وعاش رينيه هذه العيشة بضعة أشهر كأنه يخلق في سماء أبدا زاهية مصحبة
لا يكلف نفسه عناء النظر الى حقيقة من يجب . تملأ جوانحه الثقة كما يملأ فيض
السعادة قلبه وحواسه

ولسكنه على سر الزمن وتوالي الصلة بدأ يلح في حبيبته شيئاً من الانكماش
وبعض التسكتم ورغبة حذرة خفية في اجتناب الصراحة والاحتفاظ و من
الغموض والظلمة لم يكن يتمكن من تمريقه والنفاذ الى قرارته

وكذبت عليه عدة مرات في أشياء كان يعلم حقيقتها حق العلم فأوجس خيفة وانجابت عن ذهنه بعض السحب وبدأ عقله الراقد يفكر فلم يتردد وأخذ يراقبها ...

احتواه شك هائل وداخلته الريب الفظيعة وسلطت عليه الخيرة جميع ضروب القلق والحسرة والمهانة والغيظ ، فابصر بنفسه كالأضائع يفترق الحقيقة فلا يجد لها خشناً مع رفاقه غليظاً مستبداً في بيته ساخطاً متبرماً بالعالم ، يود أن يستقر على أمر واضح ولا يستطيع

ولكن اتقان مدام مورين الدور الذي كانت تمثله وصورة العذراء النقية التي حفرتها في ذهنه منها وظرفها ودلالها ورقيق عطفها - كل ذلك كان يبدد شكوكه تارة ويثيرها في صدره تارة أخرى . ولم يكن ليقدر البتة على التحرر من الاطار الذهبي الفاتن الذي اعتاد أن يرى فيه رسم حبيبته ولم يكن يستطيع أن يتخيل هنيئة أن هذا الملك الكريم قد يكون في الواقع أفنك من شيطان رجيم الى أن حدث أن سمع بعضهم يغتابها وابصرها عن غير قصد ذات ليلة في مقصورتها في المسرح صحبة زوجها والبارون ديفورج ...

تحققت ظنونه فجأة وهاله ما رأى فترك المسرح لفوره خائر الحول محطم الأعصاب مهدود القوى وراح يحوب الشوارع هاذا با كيا يفكر في الماضي ويقيسه الى الحاضر ويذكر ما كانت عليه معه وما هي عليه في الحقيقة فيكاد يحن جنوناً . وكان يستفز سخطه واستنكاره أنها لعبت به وجعلت منه أداة للتسلية وقتل الوقت وأن حبها كان مجرد أكاذيب وإخلاصها أيضاً وحديثها وضرتها وكل شيء فيها ...

وصار ريذه لا يؤمن بالحياة ولا بالخير ولا بالفضائل بل عاد لا يؤمن بمواهبه كأنما انهيار مثله الأعلى قد حطم في الوقت نفسه عقله وقلبه على السواء . وشاع في صدره البغض وعز عليه كيف يخيب في حبه الأول . إلا أنه كان ما يزال يعشق تلك المرأة فانقلب بغضه بدافع الحب إلى بأس مرير ، ولم يفكر البتة في الانتقام منها بل ذهب اليها وصارحها بالواقع واستحلفها بكل غال من الساعات

التي قضياها معاً أن تهجر بيتها وعشيقها وحياة الترف المزرية التي تعيشها ، وأن
تفر معه الى حيث الحب والحرية

هزأت منه في عميم نفسها وعبثت بسناجته التي لا يريد الاقلاع عنها ورفضت
اجابته الى سؤله فخرج من لديها مستشيطاً حانقاً يلعن اللحظة التي عرفها فيها
ويجتهد في أن يتمالك رشده وينسى . ولكن الطعنة كانت في الشفاف والامل كان
رحباً جميلاً والخير كان ممثلاً فيها والحب كله كان يترقرق من عينيها نظرات
وابتسامات . لا . لم يستطع رينيه احتمال هذا ودب في نفسه القنوط وحاطه
العدم من كل صوب ، فطأ طأ هامته عياء وعاد لا يفكر في شيء واتجه بخطى
ثابتة إلى منزله ثم دخل حجرته وهناك تناول مسدسه وأطلقه على صدره فخر
لفوره صريعاً مضرجاً بدمه



وما كاد يبلغ أمه الخبر حتى عراها شيء من الصعق والذهول وسارعت
اليه وقد طارت نفسها شعاعاً ، غير متصورة أن ابنها الوحيد المعبود الذي بذلت
في سبيله جهد حياتها وحمته من كل غائلة ، وصاغته على مثال نفسها النبيلة الطاهرة .
لا يجد من نفسه قوى يقاوم بها التجربة فيصبح الفريسة العاجزة المسكينه لبعث
المرأة وغدرها ...

وأجمع من هذا كانت حال روزالى حبيبته الأولى فان اليأس استحکم من
قلبيها وابتلتها مرارة الخيبة بضرب من الالاسى الممض وانخفاض القوى والحسرة
والذبول ، وكما خيب القدر حبيبها في حبه الاول كذلك صنع بها فهما متباعدان
متقاربان يلتقيان في المأساة ويفترقان في الهوى ، تجمع بينهما رابطة الالم وتقصيهما
عن السعادة سخرية القضاء .

واجتمع السكل عند فراش رينيه ، والدته المنسكودة وحبيبته النعسة وصديقه
الذي علمه الحياة . وظلوا بجواره يرعون به عين عنايتهم ويسهرون عليه ويرسلون
الى صدره المسكوم ما وعته صدورهم من حب وافتداء . الى أن تغلبت
عزيمتهم على الخطر الداهم فانقذوا الفتى وانتزعوا جسمه سليماً من بين براثن العدم

الا أن قلبه كان ما يزال فى عداد الاموات ...
واستفاق رينيه من سباته وخرج من الفاجعة كالخارج من القبر . يرنو الى
الطبيعة بعين جديدة . ويستقبل الدنيا فى حذر واحتراس . ويستكشف الحياة
كالطفل فى كل خطوة

والتقى ذات يوم بصديقه كلود لارشيه فنظر اليه هذا نظرة متفرسة عميقة ثم
هز رأسه وتنهد وقال فى تودة وإيمان : « الآن فقط . الآن يا صديقى يمكنك أن
تخلق العمل الفنى الانسانى الصحيح . لقد خربت الحياة وتألمت . لا يجب أن
تأسف على ما وقع ! ... »

فأشاح رينيه بوجهه قليلا وقطب حاجبيه وغض بصره ولم يحرجوا
وفى هذه الاثناء كان البارون ديفر راج - عشيق مدام مورين - أسعد الجميع
يحتسى كأس خمر مهتقة ويعرض بالنسوة الجميلات وهو يبتسم ! ...



المذاب

Le Calvaire

لاوكتاف ميربو

أوكتاف ميربوروائى فرانسى شهير يصور العادات والاخلاق والتقاليد فى أسلوب حاد عنيف . تقرأه فكأنك تسبح على ظهر بحر متلاطم أو كأنك تستمع لفيض من الأنغام الداوية المذهلة . وهو كاتب مسرحى وقصصى وناقد فنى لاذع هجاء . والقصة التى نلخصها له أبدع قصصه على الإطلاق ولموضوعها مساس بجزء من حياتنا الاجتماعية المصرية وهى فوق ذلك تتصل بالحياة الانسانية العامة فى كل بيئة وكل زمن

نشأ فى قرية من قرى فرنسا بعيدا عن ضوضاء المدن وسط الطبيعة الجميلة الهادئة . إلا أنه لم يشعر بالراحة أبداً .

كان رقيق العاطفة ، حاد المزاج ، سريع التأثر ، لا تكاد تفرحه نكتة لطيفة أو ابتسامة عذبة حتى ينقلب بغتة فتبدو على وجهه الناحل آثار الهم والشجن . فيفر من المجتمعات الى حيث يخلو بقلبه يناجيه ويتلمس الى الله ان يملأ فراغه ببعض السعادة

وكانت أمه على شاكلة امرأة مريضة منخلعة الأعصاب كثيرة الوسوس . مصابة بشبه خوف من الناس والحياة .

ولم تكن لتفارق ذهنها فكرة الانتحار وكانت لاتنفك ترى أمام عينها شبح والدتها المسكينة التى انتحرت ذات يوم بأن شنقت نفسها بحبل غليظ ربطته الى الثريا الكبيرة التى كانت معلقة فى سقف غرفة الاستقبال

وعشنا حاول الزوج ان يطرد عن مخيلة زوجه هذا الخطاير الفاجع . فصورة المنتحرة كانت تتمثل لها على الدوام فتسرى القشعريرة الباردة فى جسمها وتخشى أن تنتهى هى أيضا كما انتهت أمها فتبكي والرعب يملأ نفسها وتنتجه الى ابنها الوحيد ولا غاية لها إلا انقاذه من المرض الذى تعانيه

كانت تراه حزينا مثلها . حساسا . عصيبا . تأكله الهموم المخيلة . ويذهب به الضجر الى أبعد مذاهب اليأس . يشحب لونه ويهزل بدنه ويستدق شعوره الى حد الألم فتوقن الأم ان العلة وراثية فيه . وان الضعف العام انحدر من أفراد أسرتها اليه . وانه لو بقى فى الريف وظل يستمرى حلاوة العيش الرضى ورخاوة الحلم المعسول . وبهجة الطبيعة الهادئة فلا بد أن يتسمم وجدانه ، ويألف السكسل والتواكل والراحة والاسترخاء . ومن يدري ؟ فقد تنتابه جاذبية الانتحار وقد تسكتفه الهواجس وقد يعتزم الخلاص فيقدم على ما أقدمت عليه جدته وهكذا يموت ضحية الجرثومة الفاتكة التى نقلت اليه عدواها هى أمه . . أقرب الناس اليه وأشدهم حبا له !

عارض الوالد فى ذلك وأراد أن يشرف بنفسه على تربية ولده فجاء بمعلم خاص . وجعل يراقبه ويرشده ويحوطه بعين عنايته ويسهر عليه والفتى يترعرع . نفور الخلق ، طائشا ، متبرما ، مستهترا ، يتنقل فى لحظة وبدون مسوغ من الفرح الى السكابة ومن الهزل الى الجلد . من التفكيد الى العبث ومن الضحك الى البكاء

توفيت أمه فازداد شعوره بالوحدة . ونخيل اليه انه فقد قوة كبيرة طالما استند اليها وأحس بنفسه مخلوقا ناقصا محيرا . يهيم على وجهه فى طالب شئ يحمله . ولا سبيل لحياة الريف المتشابهة ان تبلى ظمأه النفسى أبدا
اعلنت الحرب السبئية فانخرط فى سلك الجيش وأدى للوطن واجبه ثم عاد الى قريته ولم يكد يدخلها حتى جاءه نعى أبيه فضى الى البيت الذى ولد فيه فألفاه ساكنها مداما خاويا لم يعد يضم بين جدرانها غير الخادم السكهل والخادمة العجوز يميكان سيدهما ويذكران الماضى ، ويقبلان على الفتى ، يحاول كل منهما تخفيف لوعته بعبارات الهزاء الريفية البسيطة التى تزيد المرء ألما على ألم . .

لم يستطيع جان فرانسوا ماري البقاء في القرية لحظة واحدة . كان لا يكاد يخطو في غرف البيت حتى يتمثل شيخ أمه ويستقيم أمام ناظره هيكल أبيه وتتأجج في أنحاء ضلوعه مختلف عوامل الشجن فيظل ساهداً يفكر في حياته وفيها فاعل في الغد وفي باريس الفاتنة التي شاهدها عن كثب هو وأغرم بها واحتلت فؤاده وليس في وسعه أن يعيش بعيداً عنها .

وهكذا ودع جان قريته الصغيرة مسقط رأسه وموطن صباه وقبل الخادمين المحجوزين وتزود من الطبيعة بنظرة أخيرة واستقل القطار ورحل الى باريس



وكان قد أولع بالأدب لفرط دقة إحساسه . فلم يكن يصادف كتاباً جديداً إلا ويقرأه . ولم يكن يلقي أديباً ناشئاً إلا ويجلس اليه ويستمتع لحديثه ويشاركه آلامه وآماله . وما كان أحلى تلك الساعات التي أنفقها في مطالعة دواوين الشعراء . يلتبس فيها ملجأ لنفسه . وسأوى لقلبه . وغذاء لوجدانه . ومهني سامياً للحياة

وأراد أن ينفس عن صدره فشرع في تأليف قصة يودعها خلاصة أفكاره وصفوة عواطفه وما يظن أنه قد عرفه عن شؤون الدنيا وألوان الجمال وأسرار القلب البشري

واستهوته حياة الفنانين ، وما فيها من طهو ومجانة وعبت وتشرد . وضاعف حبه لها أنه كان حزيناً وهي ضاحكة . وأنه كان رصيناً وهي هازئة . وأنه كان يحمل هموم السنين وهي لا تريد أن تحمل هم يوم واحد !

وتعرف إلى مصور شاب . حلوا الحديث . لطيف المعشر . يعمل في اجتهد ونشاط لبلوغ ذروة الشهرة وتحقيق آمال الصبا

توثقت بينهما عرى الصداقة وتوسم جان في المصور النبوغ والتوقد . فاطمأن اليه واستراح لخلطته وأنزله من نفسه منزلة الصديق المفضل .

وكان يذهب اليه في هدأة الليل فيجلس الصديقان وأمامهما أكوام الشاي وحوطهما صور الذسوة الجميلات وبين أصابعهما السجائر يدخان ويشربان

ويبدأ دلال الحديث العذب الطويل . ويقص المصور على صديقه وقائعه الخرامية وينفضي إليه جان بكل ما يعتلج في صدره من أسى والمصور يحاول أن يسكب عواطف الشاب ويلطف من سORTEه واسكن جان كان يسترسل في التحدث عن الحياة وعن مصائبها وغدرها وتفاهتها وغشومة القدر الذى ينزل الكوارث الناس فى غير ما عدل أو روية كقوة عمياء تبطش ولا ترى . أو بكبار فاسد شرير يلاعب جمعا من الاطفال لا يلبثون أن يسأنوا به ويركنوا اليه حتى يمسك بهم فيغافلهم ويصرع الكل واحداً بعد الآخر

هذه النزعة المتشائمة هي التي كانت مسئولية على جان . وهي التي كان يبصر من خلالها ألوان الحياة . إلا أنه بالرغم من هذا كان طيباً . وكان خيالياً . يصدر على الحياة العامة احكاماً سوداء ولا يستطيع أن يفهم حق الفهم شخصية إنسانية واحدة من مختلف الشخصيات التي تمر به يومياً ولا يعنى بدراستها وتحليلها وتكوين فكرة واضحة عنها

كانت نظرتة إلى العالم نظرة فيلسوف يقرر الآراء سلفاً ويفترض الافتراضات ويجمع على حقيقة واحدة أما الحقائق المتباينة فلم تسكن لتستوقفه لحظة . كان يفتقر الى قوة الملاحظة التي تنفذ الى بواطن الاشياء والأشخاص فتستشف جوهرها الدفين الذي تحاول العادات والاوزاع والتقاليد أن تلاشيه أو تدود عنه وتحجبه عن الابصار

وفي يوم من أيام الشتاء وجان جالس إلى صديقه يتحاوران ويتجادلان والرياح تعصف في الخارج وشآبيب المطر تتساقط على الواح النوافذ . والحجارة دافئة . والشاي المعطر ينه الاغصاب والافكار ، سمع طرق على الباب وخيل لجان أن حفيف ثوب فضفاض قد اختلط الساعة بصفير الريح . فقام المصور وفتح الباب وتنحى قليلا وإذا امرأة بارعة الجمال عليها معطف من الفراء البني البديع تدخل بقدم ثابتة وتحني المصور ثم تلتقي بنفسها على المقعد تعبئة لاهثة ضاحكة هي امرأة صديبة ذات شعر أسود غزير تسترسل ضفائره على خديها وجبهة مشرقة عريضة ووجه مستدير . وفم صغير وشفنات مكتنزان ولون غريب يترقق على محياها ويسطع سطوعا عجيبا يمتزج فيه البياض الباصع بضرب من الصفرة الخفيفة

تزيده بهاء وقتنة . اما عينها فسوداوان لوزيتان عميقتان يترامى فيهما الصفاء
أول وهلة وتنبعث منهما شتى الاحساسات الكبيرة كالزاهة والصراحة
والمودة . إلى أنها كانت تقطب حاجبيها وتشيع بوجهها فتلتصم في حديقها
بغثة بوارق خفية يهلع لها الناظر ويكاد ينكر ما أحس به الساعة امامها من
غبطة واحترام وتقدير

عرفها المصور الى صديقه فنظرت المرأة الى جان نظرة فاحصة واقبلت
عليه تحدثه كأنها تعرفه من زمن بعيد ثم دعت لزيارتها وجعلت تلوم المصور
على جنائنه وتقول له إن صديقها شارل غاضب عليه ويود أن يراه وأنها
ما جاءت إلا للاستفسار عن صحته والاستعلام عن سبب تغيبه ودعوته الى منزلها
في الغد

ومكثت هنيهة ثم استأذنت بالانصراف . ولما أغلق الباب وعاد المصور
الى رفيقه خيل لجان أن الغرفة قد اختفى منها الضياء وأظلمت فجأة وانتشر في
جنباتها السكون . . .

احس ان شيئاً ثميناً قد سلب منه . وأن قوة محيية قد انتزعت من صدره .
وأنه مطرق واجم مشدوه

طاب الى صديقه ان يتحدث عنها . فما كان من المصور إلا أن حمل عليها حملة
هائلة . صاح بجان والكرامية تملأ نفسه والحقد يدوى في صوته . وعلا ثم
الازدراى والاشمئزاز مرتسمة على وجهه . وأخذ يشرح له حقيقة تلك المخلوقة
وما تستر تحت مظهر الفضيلة من رذيلة وخبث ونفاق

اخبره أنها امرأة لعوب طائشة هوجاء متقلبة العواطف . متلونة الاحساس .
اولع ماتكون بتعذيب الرجال وابتزاز أموالهم وإذلال كبرياتهم والتلذذ بما
تحدثه لهم من متاعب وآلام

وقص المصور على صاحبه كيف أن شارل عشيقها كان يجيء إلى هنا فاراً منها ،
ساخطاً عليها ، ناقماً على الساعة التي أحبها فيها . فيجلس على هذا المقعد
ويصرخ ويتوسل ويبكى شارحاً عذابه . مستفيضاً في شكواه . يبحث عن طريقة
للخلاص منها ولسكن على غير جدوى

واسهب المصور في تعاليقاته وتحاليله وجان يستمع له باذن مرهفة . ولما أن فرغ تطلع إليه الشاب وابتمسم وجعل يهر كتفيه هز من لا يصدق ويتهم الآخر لمبالغة والتحامل

اجل . لم يكن في وسع جان وفد شاهد تلك الجبهة اللامعة وتينك العينين الصافيتين وذلك المظهر المحتشم الرصين أن يصدق أن هذا الاطار السكامل لا يعبر عن خلق طيب سمح . حاول المصور اقناعه ولكن المرأة كانت قد طبعت في خياله منها صورة ثابتة للخير . كما تطبع صور المعابد في نفس المؤمن رموز الصلاح والتقوى

خرج من لدن صديقه وفسكره محتل بها . يراها حيثما سار وأنى ذهب . تتمثل له تارة في عرض الطريق . وطوراً في ظلمة وحدته . لا يفتح كتاباً إلا ويبهر عينها الصافيتين من خلال سطوره . لا يكتب عن المرأة حرفاً الا ويذكر هذه المرأة . لا يتحدث عن النساء إلا ويتخذ منها القدوة الصالحة لمن جميعاً فتن بها وراح يحوب باريس باحثاً عنها . يرتاد الأندية والمسارح وملاعب الرياضة ودور السينما . عل عينه الشاردة تقع فجأة عليها

واستعبد لخياله وضاعفت دقة احساسه هذا الاستعباد فلم يستطع المقاومة . واعتزم في النهاية الذهاب اليها . وطرق بابها . ولو أنه لم يرها غير مرة واحدة واتجه حيث تسكن وععد الدرج وقلبه يخفق وأسنانه تصطك وتقدير الحسية يحز في صدره . ودق الجرس فخرجت اليه الخادم واقترادته إلى البهو الكبير وذهبت تنبئ سيدتها بمقدمه

دخلت عليه خففت لاحتجتها مضطرب الاشارات جم اللفتات ممتقع اللون . يتلعثم ويروغ بهينيه ويتنفس تنفساً ثقيلاً متداركاً كتلميذ في أول موقف حب . وكان يتبع جوليت كلبها الأبيض الصغير المدلل المحبوب . يقفز حوالها . ويمرغ رأسه في أطراف ثوبها ويعوى عواء متقطعاً وهي تداعبه وتأخذ بين يديها فتقبله ثم تلمق به بعيداً وتضحك . . وكانت مرتدية ثوباً بنفسجياً بديها يظهر

تقاطع جسمها المتسقة المليئة وينحدر حتى قدميها الصغيرتين اللتين تشف جواربهما عن بشرة نقية ساطعة . استقبلت جان أحسن استقبال ورحبت به وسألته عن صاحبه . وشجعتة على المجيء لرؤيتها . وقالت أنها سعيدة بمعرفتها إياه وأنه راق لها . وأنه نابغة وظريف . ثم تحدثت عن كليها وعن شغفها العظيم به وعن ألامه ونوادره وانحنت فاخذته بين يديها ثانياً وجعلت تهدده وتناغيه كما تفعل أم برضيعها

واستهوت الشاب منها هذه البساطة والرقّة ولم يكن لينتظر مثل هذه الحفاوة فاطال الجلوس وشرع يتكلم عن حياته ومؤلفه ومستقبله وحاجته الى مخلوق يمتاز يفهمه ويعطف عليه

وقام ليرحل فابتسمت له ابتسامة ساحرة وأمالت رأسها قليلاً وقدمت يدها تصافحه فتناوها وأبقاها بين أصابعه لحظة ثم حذق الى المرأة تحديقاً شديداً وقبل يدها قبله حارة . فابتسمت أيضاً وشيعته حتى الباب وطلبت اليه في طجة عذبة أن يعود لزيارتها متى شاء . وقالت انها تكون سعيدة للغاية لو استطاعت ان تجعل منه صديقها المنشود ..

كاد الشاب يحن من الفرح . وما ان هبط الشارع حتى أخذ يغنى ويصفى ويلوح في الهواء بعصاه ويركض بدل ان يمشى وطيف جوليت يلزمه ويستحث خطاه ويمنيه بالهناء والحب

وابتسمت له الدنيا وفارقت السكابة محياه وهجر التشاؤم والحزن والضجر وبات يظن ان انساناً جديداً قد استفاق فيه وان قوى خارقة قد اضطربت في صدره وأنه يعيش في النهاية . يعيش كما يجب أن يعيش جميع الناس ... وهدأت أعصابه . واستقر بعض الشيء . وألف رؤية جوليت واعتاد الذهاب اليها في المواعيد التي كانت تحددها له

وبدأ يزورها في الشهر مرتين ثم تدرج الى عدة مرات في الأسبوع وانتهى زيارتها كل يوم

وكانت لا تلبث ان تراه حتى تهلل لمقدمه وتسرع اليه باشة مغتبطة

تفوضى اليه بهومها وتشكو قسوة شارل . وتسترشد بنصحه . وتستبقيه للشام
ثم ترخي ابصارها وتتهد في حياء مباغت لطيف كحياء العذارى
واستولت على قلب جان دون ان يبدو عليها أنها قامت بأى مجهود . وكان
الشاب يزدد اشتها لا يوما بعد يوم . يفكر في المجاهرة باحساسه ولا يحسر
وبعد ان كانت نفسه قد بدأت تستريح عاوده اضطرابه القديم . والتهيب
مزاجه . وأصبح بين ألمين . ألم الحب . وألم العجز والجن . وما ينشأ عنه من
حسرة ذليلة . ويأس من بلوغ الغاية التي يراها كل يوم أمام عينيه . فى تناول
يده ، ولا يستطيع ان يضمها اليه ويظفر بها

وفى ذات يوم وقد ضاق صدره وعيل صبره وشعر ان لابد له من الاقدام
اذا شاء ان يهدأ ذهب اليها وبينما هما يتحدathan جذبها اليه وأمسك بذراعيها وأسر
اليها لوعته

تراخى جسمها ومثلت دور المرأة الضعيفة هاجمها الرجل للقوى تفخضت بعد
كفاح طويل . .

وما ان أحس جان أنها أصبحت له حتى كاد يفقد صوابه من فرط الفرح
فجثا عند قدميها وعرض عليها كل شئ : حياته وقلبه وشبابه والثروة التى خلفها
له والده وكل ما ملكت يده

سرت المرأة من نجاحها فى الخطوة الأولى وجعلت تستدرجه بشقى الحيل
تجفوه ثم تقبل عليه ثم تتمنع ثم تستسلم كأنما هى أيضا تدعن لحب شديد لا قبل
لها بالتغلب عليه

وأهملته أياماً ثم أظهرت له رغبة عارضة فى النقود فأسرع وأمدّها بمبلغ
جسيم . فأنفقته لفورها فى شراء معطف وثوب وطابت اليه مبلغاً آخر فأعطاهما
إياه عن طيب خاطر فابتاعت به أثواباً جديدة وقبعات وجوارب وأحذية
وقمصانا وأقراطاً وأساور وكل ما تشتهيه المرأة من أفانين الترف والنعم
كان المال ينساب بين أصابعها كالماء . وكانت تنفق عن سعة وبلا حساب

تنفق على نفسها وعلى صديقاتها مختالة مزهوة مفاخرة لا تلبث أن تحصل من الشاب على نفود حتى تبددها وتلح في طلب غيرها وتغضب وتنفق وتعرض حتى تنال ما تريد فتبدده أيضا وتعود إلى ما كانت عليه غير آبهة لما قد يحل بصديقتها من خراب

والتهبت عاطفة الغيرة في نفس جان واتقد حبه وود أن يحظى بالمرأة وحده فرغب اليها أن تترك صديقتها الأول وأصر على ذلك وتوسل واسترحم واستجدى فامتثلت لرغبته وطردت شارل

أرادت أن تبدل مسكنها وتقطن مع حبيبها في حي نخم جميل فأجابها الى سؤالها وأمدّها بالمال اللازم فابتاعمت أجمل الأثاث . وأغلى الطنافس وأبدع الاستار . وأروع التماثيل . واتصلت بالخياطات الشهيرات وجعلت تفصل أثوابها على أحدث طراز وتفتن في الظهور بمظهر الاميرة التي دانت لها وسائل النعمة وعرف جمالها كيف يفوز بأوفر قسط من متاع الحياة

وانصرفت إلى معيشة الترف . وجمعت حولها رهطا من الأصدقاء والمعجبين . وأرادت أن تبرز أنوارها . فكانت تبدو في الملامح وعلائها أجمل زينة . وتغشى الحفلات صحبة الأغنياء والممولين تحادث هذا وتبسم لذاك وتمنى الآخر والكل متميم بها يتبعها كظلمها ويرود حولها كما يرود الفراش حول النار !

وكان جان يشهد بعيني رأسه كيف تنبذ هذه المرأة ثروته الطائلة وكان يتعذب . يتعذب لامن أجل المال الضائع بل ليقينه أنها إنما تنزى لغيره . وتحيا لغيره . وتؤثر الظهور في المجتمعات على البقاء في المنزل معه . تضجر من صحبته الطويلة . وتريد أن يراها الآخرون ويعجبوا بها ويتملقوها . لا لذة لها الا في ان تسكون قبلة الرغبات وهدف الشهوات ومحط البصر وملك الناس جميعا ! وكيف كان يستطيع جان أن يسمح بهذا وهو يحبها حبا يكاد يبلغ الجنون . يحاول أن يحتفظ بها لنفسه . أن يحرص عليها كحديقة عينه الغالية . أن يفر بها من باريس الملعونة . أن ينقذها من هذا الجو الفظيع الذي كاد يسممها ويقضى عليه

كاشفها بذلك فغضبت وتبرمت فجعل يتوسل اليها أن تظل في البيت برفقته ليلة واحدة فقط . ولكن كان لابد لها أن تخرج . أن ترى أصدقاءها

وتستمع لأطرائهم . وتهيش وسط ضجيجهم . وتلتذ بفتنتها وسلطانها عليهم .
أما جان فله أن يصطحبها أو يظل في البيت . يتلوى حنقا ويستشيط غيظا ويتنقل
والشكوك تأكله والغيرة تمزقه والحيرة تسكتفه ولا أنيس له غير الكلب الأبيض
الممقوت الذى ترعاه جوليت أكثر منه وتعجه كما لم تحب أى انسان . . .

هاله ما أنفقه عليها وشعر والرعب يملأ نفسه انه لم يبق معه خير مبلغ ضئيل
لا يسعفهما مدى ثلاثة أشهر . فاختل ولم يدر ماهو صانع وراح يستعطفها
وبلتمس اليها ان تسكف عن الاسراف والتبذير . ولكن قلبها القاسى لم يكن
ليعرف الرحمة وما ان استوثقت من أنه لا يزال يحبها وانه مغلول بصفقه اليها
وانه طوع أمرها كما كان حتى طلبت اليه أن يتناع لها العقد الثمين الذى شاهداه
سويا فى واجهة أحد المخازن

اضطرب جان واسودت الدنيا فى عينيه وكان على وشك ان يعترف لها بالحقيقة
غير أنها ابتسمت وقبلة فأطاع لفوره وابتاع لها العقد . ولكنه بعد بضعة أيام
لم يستطع إلا ان يصارحها بالواقم ويخبرها والدمع يحول فى عينيه أنه يسير بخطى
حديثة نحو الخراب وان آخر ما تبقى من نقوده مبلغ ألفى فرنك

نصح لها بالاقتصاد فهزأت به وأعرضت عنه وأخذت تعيره وتزدرية وهى
تقمقه قهقهة مزعجة مأوها الغلظة والاثرة والوحشية

لم تعبأ به واستطردت حياتها ترتدى أجمل الثياب . وأغلى الجواهر . وتنفق
كعاداتها بلا حساب والفتى يرى ولا يفهم . . يفهم ويراجع نفسه ويود ألا يفهم
ونوبات الجنون تعثره . والافكار الشائنة تطوف بذهنه . والذل يحتاج أعصابه .
والغيرة تعض قلبه كحيوان رابض فى موطن الحياة والحب منه ، وفى ذات ليلية
أبصر جان على أرض البهو بطاقة فتناو لها وما ان وقعت عليها عيناه وطالع اسم
صاحبتها المتهمكة حتى فقد صوابه وأحس ان الحجرة تميد به فاستند الى الحائط
وتمالك نفسه وجمل يصرخ مناديا جوليت فجاءت الخادمة وأخبرته أنها خرجت .
وللحال استضاء عقله بنور ساطع غريب وخيل اليه أنه يرى بفتة كل شئ . فأسرع
وارتدى معطفه ونزل الى الشارع جا حظ العينين مكفهر السحنة واستأجر عربة
فانطلقت به الى هناك . . الى بيت البغى صاحبة البطاقة . . . وصل قبل جوليت

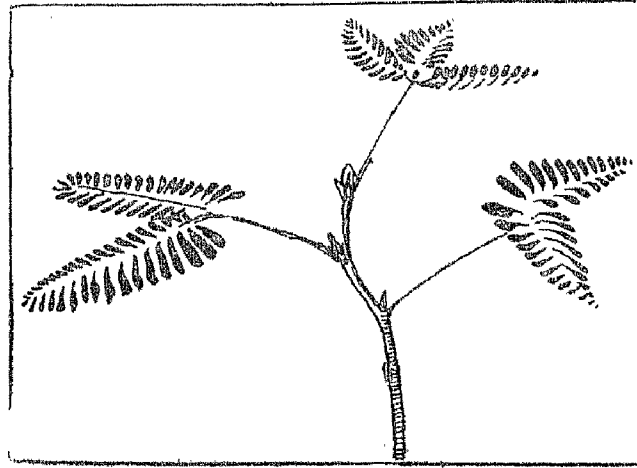
ولم تكذب تمر بوضع دقائق حتى أبصرها فاقامة فتتجنى قليلا وتجنز ثم هجم عليها وسد فمها بكفه واحتملها بالرغم منها وألقى بها في جوف العربة وهي تتماص وتقاوم وتصبح وما إن احتواها المنزل حتى أمسك بها وطرحها على الأرض وجعل يضربها ويضربها ثم انسابت اصابعه المرتعشة إلى عنقها البض فطاش صوابه وأخذ يضغط عليه حتى رفت العيون واندلج اللسان وتمشت في الوجه صفرة الموت فتركها وذهب ينادى الخادمة والجيران وهو يصرخ كالجنون: أذهبوا اليها لقد ماتت! لقد ماتت!

واتجه الى منزل صديقه المصور وأخذ يبكي. وظن أنه قتلها واستراح ولكنهم أنبأوه بنجاتها فلم يستطع البقاء ورجع اليها
أجل عاد ثانيا. عاد أضعف ما يكون بعد أن شارف البطولة لحظة.. عاد خاضعا ذليلا تصدق عليه بالمسال وتمنحه فضلات القبل!
عن على صديقه المصور أن يراه على هذه الحال. فألهب فيه عاطفة الكبرياء ونصح له بالسفر وأرسله على نفقته الخاصة إلى بيت له في إحدى ضواحي باريس ولكن البعد زاده حبا ولوعة فجعل يرسل جولييت ويرجو منها أن تزوره في وحدته ولو مرة. أجابته إلى طلبه وأنت في عصر يوم وضاء جميل ومعها طلبها الأبيض ولكن القرية لم تعجبها ولم تر فيها أي أثر للترف. ولا أي مجتمع يمكن أن يضم جمعا من المعجبين فتضجرت وندمت وخلفت القى وحيدا ورجعت إلى باريس. أدرك جان أن لا سبيل لامتلاك هذه المرأة إلا بالمال. المال أيضا ودائما المسال. فلم يتردد وباع آخر ما يملك وهو منزل آبائه الذي بقي له في الريف. ورحل إلى العاصمة ومع النقود فما ان رآته وعلمت بما كان حتى أكرمت وفادته واستولت على المسال وبدأت تبتاع الملابس الفاخرة. والاثاث الرائع والحلى الثمينة حتى فرغ المسال وأدركت أنه امسى فقيرا معدما فانصرفت عنه وعادت إلى حياتها المستهتره فكان يضربها ويبكي ويخضع ثم يشور ثم يستغفر ثم يعنو. وفي ذات ليلة وهو راجع من المدينة بعد منتصف الليل طرق الباب فأطلت الخادم وما ان رآته حتى صاحت في وجهه وانتهرت وتوعدهت باخطار البوليس فأدرك أن جولييت أمرت بطرده فباله الأمر وظنها داخل المنزل

مع عشيق فدفع الخادمة وسار حتى مخدع النوم وتلفت فلم يبصر أحداً وحانت منه نظرة فرأى الكلب الأبيض جاثماً في الزواية يمدق إليه فثار حقهده فجأة واستنكر كيف أن هذا الحيوان يصيب من السعادة والحب ما أن يكون من حظه أبداً فانحنى عليه وفي حسد وبغض وجنون أمسك برقبته وضرب به الأرض فتفجر دمه فقمقه جان واحتمله وألقى به على السرير . . سريرها الذي استحال

إلى بحيرة صغيرة من الدم يسبح فيها جسم الحيوان البائس المسكين !
رهبط الدرج واستقبل الشارع وفيما هو حائر يتطلع اتسعت حدقاته بغتة وارتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدمه . لأنه شاهد . . . شاهد المصور . . . صديقه الحميم راجعاً مع جوليت في عربة يقابلها ويضحك !

لم يتقدم جان . ولم يصح . بل لم يتكلم . أحس أن العذاب قد انتهى فعاد أدراجه يترنخ ويهذى كسكير . وفي الصباح ابتاع قبعة صغيرة وثوبا أزرق . وحذاء غليظاً وعول أن يشتغل . . . أن يشغل يديه كعامل بسيط !



بين الثلوج

La Neige sur Les pas

لهنرى بوردو

هنرى بوردو مؤلف هذه القصة روائى فرنسى شهير وعضو فى المجتمع الادبى . بدأ حياته الادبية بنشر سلسلة مقالات وبحوث تناولت بالنقد كبار كتاب عصره . ثم تلمذ على القصصى (بول بورجيه) واعتنق مذهبه فى التحليل النفسانى ووصف خباياات الحس والضمير ولسكنه ينزع نزعة خاصة فهو يمزج التحليل بالحوادث الشائقة القوية ، يختار حادثه عنيفة تمتلك على القارىء مشاعره ثم يجتهد فى رسم العواطف والميول بالقدر الذى تسمح به الحادثة . فالحادثة عنده فى المرتبة الاولى ويحى بعدها التحليل والوصف . والقصة التى نلخصها هنا هى اقوى رواياته على الاطلاق . وقد أعجب بها الناقدا أميل فاجيه واستقبلها عند ظهورها بعبارات التشجيع والثناء .

صبية فى ريعان الشباب ونضرة العمر . ملء نفسها الامل والاخلاص تود أن تبذل نفسها عن طيب خاطر فى سبيل شخص ممتاز أو عاطفة كبيرة ، شديدة الاحساس الى حد الغلو ، أليه النفس موفورة العزة . تحلم بالحب العظيم كمعظم النساء ولا تفكر فى الزواج إلا وتجول بخاطرها صور المرح والتفاهم والعطف والثقة المتبادلة

هى جميلة وعارفة بحماها . ترى ما يحدثه قوامها الممشوق وعيناها الساحرتان وفتنة صباها من أثر بعيد فى الرجال ، فتبتهت ويحار فكريها فى تحليل تلك القوه

التي حبتها بها الطبيعة عفواً كما يخلف الربيع ضيائه على الورد اليبانعه
هى فقيرة ، حال الفقر بينها وبين الظفر بالشباب الذى تصبو اليه أحلامها
فاقتربت بكله واسم الثروه . وانصرفت لحياتها اليبتيه ساكنة مطمئنة قانهه
راضية . . .

تلك هى تيريز زوجة المهندس الثرى مارك روميهه أحبها الرجل حباً يقرب
من العبادة . حباً صامتاً ملحاً عميقاً . يلهمه تفاوت السن . وتكسبه الرجولة الناضجة
نوعاً من القوة والحدة والصرامة والاستثمار

كان زوجها طيب القلب « حنوناً » لا يدخر وسعاً فى سبيل مرضاتها وإدخال
السرور على فؤادها القلق القى . ولكنه كان شديد الكبرياء . على شيء كبير من
الخطيئة والشموخ . يحب مهنته فوق ما يحب زوجته . يقدس العمل أضعاف
تقديسه لمطالب المرأة واحتياجاتها . لا يعنى كثيراً بما تشتمل عليه نفسها من
عواطف بل يهتم بالمظهر ، مظهر البذخ والترف والنعيم يلقيه عند قدميها ويظن
أنه مالك به ذلك المخلوق المتقلب الظامى . الطموح

مرت ثمانية أعوام ورزقت تيريز فتاة رائعة الحسن دعته جوليت . وسرت
الحياه فى مجراها العادى . لاحادث غريب . ولا احساس خارق . ولا ميل ملتهبه .
ولا رابطة روحية وثيقة تؤلف بين قلبين . بل ركود . وصرامة . وعبادة للعمل
تشغل الزوج عن العراطف . وتعود بعدها الحياه وقد لفها الظلام واحتوتها
الكتابة المرة

لم يكن لتيريز غير فتاتها الصغيرة تقف عليها جهد يومها ، وتودعها
خلاصة حبها
ولكن قلبها كان ما يزال يحاول لا ينفك يبحث عن الجديد وهى لاتسكاد
تشعر أو ترى

على أنها كانت تقدر نبل زوجها ووفاء لها ، واستقامته وشرفه وبذله كل
مرتخص وغال فى سبيلها . غير أن الطبيعة لاتقاوم ، وتفاوت السن لابد
يجلب الشقاء

وكان لتيريز صديقة قديمة ، وكان للصديقة زوج يدعى أندريه . فتى فى لونه شحوب . وفى حديثه رقة . كلف بالعواطف مثلها . محب للخيال كحبها . مضطرب الوجدان ، سريع التأثر ، يبحث هو الآخر عن الروح الشقيقة التى لاراحة للخياليين إلا بقربها

توثقت عرى الصداقة بين الاسرتين واعتادت تيريز رؤية أندريه والافضاء اليه بما يمكنه قلبها من هموم وأنس إليها وشاهد عظيم الفارق بين زوجها الجامدة وبينها ، فانساق لحكم الماطقة وطارسها الهوى

قاومت أول الامر ، وعز عليها أن تبادل زوجها إخلاصاً بخيانة ، ونعمة يتحود . ولكن أنى لها الشجاعة ومارك منهصرف عنها الى العمل ، ونفسها خاوية من الحب . وكبرياء قريبها ورزائته تحفر الهوة بينها وبين التفاهم الروحى الذى تنشده كل امرأة ؟

زلت قدمها واستسلمت لغواية الشباب ، ومنحت عشيقها منها ما اشتبهى وتبدلت بينهما رسائل الغرام ولم يهكر على تيريز صفو قلبها إلا يقينها بأنسا مذنبه وأن زوجها يحبها أعظم الحب .

لم يفطن مارك لما حدث فى شخصية زوجته من انقلاب . ولكن امرأة أندريه احست بما وقع فثار ثائرها واشتهلت فيها غرائر الانتقام ، ووطئت العزم على إصابة زوجها وعشيقته فى الصميم ، فذهبت من فورها إلى مارك وقصت عليه حقيقة ماجرى

هاله الأمر ، ولم يصدق ، بل أخذ يبحث بنفسه ويتحرى ويراقب والشك يأكل قلبه . والغيرة تصلبه من العذاب . حتى عثر ذات يوم على رسائل أندريه لزوجته فتمثل الواقع الفظيع ورجع بذكريته الى الماضى وعرض الحوادث البعيدة واحدة . فواحدة . وعندها أيقن بالجريمة ، فطاش صوابه وأحس البغض والاشمئزاز لزوجته فاستقدمها اليه ، وفى ابا واستنكار وسخط واحتقار طردها من البيت شر طرد وخطرها بعزمه على طلب الطلاق !

لم يكتف بهذا ، وكان من الذين يخشون بأس المجتمع ، ويقيمون كبير وزن لأقاويل الناس ، ولا يطيقون من الغير أن يمس أسمهم وسمعتهم بلنقطة تعريض جارحة . فما كان منه إلا أن تحرش بخصمه ودعاه للمبارزة ثأراً لشرفه ومغامرة بحياته في سبيل ذلك الحب وهذا الشرف

ذهلت تيريز من عواقب فعلتها وأدركت أن حياة زوجها وحياة حبيبها مهددان ، وأن ابنتها ستفصل عنها فأرسلت الى زوجها تستعطفه وتلتمس اليه أن يقلع عن عزمه ويصفح . ولكنه أبى الاستماع اليها وأغلق بابها دونها ، وحرمها رؤية طفلتها . وذهب في اليوم المحدد للمبارزة فنازل عشيقها وجرحه . . . حيثئذ فقدت المرأة رشدها وكل ما كانت قد بدأت تحسه من عوامل الندم استحال في نفسها الى تمرد وعيث وتعلق بحبيبها وخوف عليه من الموت بسببها ولاجلها . . .

نسيت جميل الزوج وواجب الأم وحكم المجتمع . ولم تعد غير اثني طعنت في غرامها وكاد مخلوق مستبد ظالم يودى بحياة حبيبها

نقمت على سلطة المال التي القت بها بين أحضان رجل لاتبواه . نقمت على التقاليد التي تفرض عليها الوفاء فرضاً . نقمت على الشرائع التي تستلب منها طفلتها دون رحمة ، نقمت على كل شيء واتجهت بعقلها وغريزتها نحو ذلك الشاب الذي شاهدت بعيني رأسها الدماء تسيل منه وهو مسجى على الفراش أصفر اللون مكفهر السحنة ناعسا مسكينا ينظر اليها من خلال جفنية الكليلين نظرة ملؤها التشبث والعبادة والالم

وعاشت بضعة أسابيع وحيدة شريفة . لا بيت صديقة تأوى اليه ولا أمل في عفو أهلها القرويين المحافظين عنها . ولا سبيل الى مجتمع يقبلها في عداذه ويغفر زلتها . ولا وسيلة تستطيع بها رؤية ابنتها ومخاطبتها وتقبلها ولو مرة واحدة . . .

تنقلت من فندق الى فندق ومن حي الى حي والحيرة تطاردها والقلق مستحوذ عليها والرغبة في انقاذ خليلها تفوق في نفسها كل رغبة

أما البؤس فلم تكن لتحفل به فقد ألفته أيام كانت فتاة مريحة طروباً
لا تعرف الزواج ولا الهوى أيام كانت تقضى طوال نهارها في تلك القرية
البعيدة تتعهد الماشية وتسهر على البيت وتجمع الثمار الناضجة المتساقطة وتطاف
العناقيد من السكروم وتنثر أوراق الازاهير البيضاء وتمدها متسائلة عما ينجيها
المستقبل من سعادة أو شقاء.

أما كان التبتل أجدر بها من حياة كهذه ؟ أما كان الزوج الربى البسيط الجميل
أصلح من زوج كهذا ؟ أما كانت القناعة أولى بها من مغريات الخيال ومفاتيح
النعيم الحضري ؟

ولكن أية فائدة من العود الى الماضي وهي قد تزوجت فشقيت ، واستولدت
فولدت للغير . وأحبت فكادوا يقتلون حبيبها ؟ ..

كلا . ان تيريز لن تخضع . لن تنيع نصيبها في السعادة . لن تتخلي عن عشيقها
لن تتركه فريسة الضعف والمرض . هو الآن الانسان الوحيد الذي تستطيع أن
تهبه كل ما يحيش به قلبها من عطف ورحمة وتوق الى الحنان وفعل الخير
هذا ما طاف برأسها واعتزمت الأخذ به

وعلم أندريه بما كادته له امرأته . فازدراها كراهية لها وعاد لا يطبق عثرتها
وكبر عليه ان تنبذ حبيبته من المجتمع وتشرد في الطرقات وتعامل معاملة مريض
موبوء . فاضطرم حبه وضاعفته الحسرة والشفقة تأججاً واضطراماً
وعيل صبر تيريز وشعرت باستحالة الحياة بعيداً عن أندريه . وكان فؤادها
يذوب لوعة وأسى كلما تصورته طريق الفراش يئن من فرط الألم ويذكرها ولا
قبل لها بالمسكوث بجواره والذود عنه والتفاني في خدمته وحمل بعض الألم
الذي يعانیه

وفي ذات يوم وقد لج بها الضنى ، وأمضها الشوق والحنين، ذهبت اليه وعرضت
عليه ان تصحبه الى مكان قصي . . . مكان رائع وجميل ، بعيد عن باريس
وذكرياتها ، بعيد عن المأساة وآثارها ، في هدأة الطبيعة وجمالها في بلاد سويسرا
بين جبالها وبوديانها . حيث المصحات متوافرة والهواء نقي والشفاء ميسور

ورفع اليها طرفه الساجي ، وتأملها لحظة ، وأبصر هالة الارق الزرقاء تحديق
بعينيهما ، وشاهد في غورهما السحيق مختلف عوامل الطبيعة واليأس والفداء تضطرب
وتماوج ، فأطرق برأسه راضيا ، وابتسم لها ابتسامة شكر وإخلاص
وفي اليوم التالي كانت تيريز جالسة وحبيبتها الجريح بالقرب منها متكئ الى
صدرها تحنو عليه وتواسيه وتضمّد جراحه والقطار ينهب بهما الأرض نهبا الى
سويسرا بلاد الامن والجمال والحرية !

وما كان أمتهما حياة تلك التي قضياها هناك ، تسر اليه همومها وبشها نجواه ،
تقبع في زاوية بجواره وتقوم على شئونه ، وهو يلاثم يديها ولا يعرف بأى
العبارات يشكرها والدمع ينهمر من عينيه . والطبيعة والمرأة تجدان نشاطه
وتصبان في عروقه دم الحياة !

ثانا يسيران جنبا الى جنب يمتعان النظر بالاشجار الزاهرة الباسقة، والغدران
الصفافية المتلاثلة ، والاوادية العميقة ، والسحب القلقة الرخوة تتخذ أفق
الاشكال وأعجبها

وكان الهواء العاطر يستقبل أنديته ويحتضنه كاحتضان حبيبته ، مفعما صدره ،
مالثا رثيه ، مستحشا همته باعثا فيه مستكن القوة ومدخر الشباب
ولم يكن ليحس صفو هذه اللحظات غير ذكرى الطفلة المعبودة (جوليت)
تطوف بمخيلة المرأة فتشيع الكتابة في مخاها وتمدد على جبهتها الغضون وتروح
في شبه غيبوبة طارئة ثم تبكي !

فكان القدر بأبى الا أن ينكل بكل حب ، ويدس السم في الكأس الطاخة ،
والهلاك في الثمرة الناضجة ، وكان اللعنة ، لعنة الزوج والولد ، لانتفك تحلق
فوق العاشقين وتتبعهما وتسوق خطاهما الى حيث يريد القضاء

الشتاء وكان في مستهل الهواء يوشك أن يبتد . ففي صبيحة يوم فكر العاشقان

فى الخروج الى الزهرة . فاعدت تيريز سلة كبيرة ملائها بالخبز واللحم المقدد
وزجاجات الماء . وانطلقت بخيلها يضربان فى انحاء المدينة وينتقلان فى ضواحيها
بعيداً عن العيون والارصاد

وكان يرافقهما الدليل يديهما السبيل بين الآكام والوهاد . واماكنهما آثرا
الانفراد بنفسيهما فصرفا الرجل وامعنا فى السير بين الجبال

وخطر لهما ما يخطر لمعظم العشاق . وهو أن يرتقياما استطاعا ويهجرا الارض
الى فسحات السماء . فاعترضا الصعود الى قمة الجبل ، جبل فولان الشاهق حيث
الثلوج المتراكمة ساطعة كالمن المنفوش

نهاما الدليل عن الصعود قبل أن يرحل . ولكنهما استخفا به ولم يكتراثا له
واسرعت تيريز فجاءت بحبل شدته الى خصرها واوثقت بطرفه الآخر اندريه
وتقدم الحبيبان بخطى ثابتة وجعلتا يتسلقان الجبل شيئاً فشيئاً . .

كانا يتدافمان ويصعدان والريخ الباردة تصفر فتلفح وجهيهما وتدميهما ،
والشاب يستجمع قواه ويبتسم ويخفى لهثاته ويهبط . والمرأة تضحك مله
شدقيها اسعد ما تكون بمصارعة العناصر بهد أن صارعت الاسرة والقوانين
والناس

وأوغلا فى السير بين الثلوج واحاطت بهما اكوامها من كل جانب والتفتا
واذا الطريق تنكرت عليهما فجأة واتسعت وتشعبت مسالكها وتضاربت واستطالت
لاستطيع العين أن تقع منها على أى مخرج أو منتهى

ابصرا نفسيهما وحيدين بين تلال من الثلوج : الجو مكفهر ملبد فوق رأسيهما
والريخ العاتية تعصف بجسميهما . والبرد القارس يسوط منهما الجلد
ويقرى العظام

حدقت تيريز فى عشيقها وعلا نحيها الاصفرار ونظر اليها مبهوتاً وأشاح
بوجهه مضطرباً ، فاستولى عليها الذعر وقلبت طرفها الحائر فى الافق الرحيب
علها تجد فرجة تهرع اليها . ولكنها لم تشهد غير قطع الجليد والثلج تملأ الجبل
وتسد منافذ الطريق

لم تأس وأقبلت وصاحبها يغدوان ويروحان باحثين عن الناحية التي صعدا منها
يناديان ولا من يحيب . يبحثان على غير جدوى . يسيران على غير هدى الى أن أيقنا
في النهاية بأن الخلاص محال وانهما ضالا الطريق وتاهتا بين الشلوج !

اظلمت الدنيا في عيني تيريز واشتد خفقان قلبها وتطلعت الى الشاب مرتجفة
والهة أخوف ما تكون عليه . وبغته ، وهو ما يزال يمشى وهي تتبعه ، واقدامها
تنغرس في الجليد ، والرييح تدفعهما ، والامل الفئيد يمنيهما بالفوز والنجاة ،
توقفت تيريز لحظة وجعلت عيناها وطاش صوابها وجعلت تجذب الحبل ما استطاعت
ولسكن أندريه كان قد وصل الى رأس منحدر سحيق وهو لا يشعر فاستطرد
المسير برغمه . وعلى حين فجأة تمايل وعراه شبه دوار وتكسرت اكوام الثلج تحت
قدميه وانبسطت ملساء ناعمة رخوة . فالتحنى على نفسه وحاول أن يذكر راجعاً ولكن
المنحدر جذب به اليه فانزلق وهوى

صاحت تيريز صيحة هائلة بددتها الرياح وهوت أثر حبيبتها
وظلا يتدحرجان وقطع الثلج تصفعهما . والجليد المتناثر يكاد يعمى أبصارهما
والخصى تتساقط كالطرر عليهما والصخور الناشزة كالسهم تمزق عضلاتهما
وتهشم رأسيهما

وكانت تيريز تصرخ صرخات جنونية ، لا تكاد تنطق بشيء حتى يغور بين
أصابعها ويتفتت .. أما أندريه فقد فقد رشده واستسلم لمقدوره والشلوج تنهال
عليه وتتقاذفه وهو لا يعي ...

واستقر بهما الانحدار على لوح من الثلج متماسك ضخيم فدنت تيريز من
عشيقتها وإذا به مشعث الشعر غائر العينين أصفر اللون مهشم التقاطيع . تسيل
منه الدماء !

صرخت مستنجدة فلم يجبها سوى الصمت الرهيب
وكانت قد ربطت إلى ظهرها سلة الطعام ففتحتها وسقته جرعة ماء وهزقت
طرف ثوبها وبللته وجعلت تسمح به جبين الشاب

ضممت جراحه وأطعمته القليل من الزاد وراحت تفتش عن مأوى
ولكن أى مأوى يمكن أن يعثر عليه انسان تائه فى جبل من جليد معلق بين
الأرض والسماء ؟
وأقبل الليل

لم تلم تبرز لحظة واحدة . كانت تقاوم النوم جهدها . وتحفر عشيقها لمقاومة
النوم مثلها مخافة إن هبا اغفيا ولو فترة قصيرة أن تغمرهما الثلوج الهابطة فى
اطراد من أعلى الجبل

وانبلج نور الصباح فقامت تيريز وجعلت تنفض أكوام الجليد المتراكمة
حولهما . وأطعمت أندريه وكشفت عن جراحه وعادت فضممتها من جديد
وعبثاً كانت ترسل الصبيحة تلو الصبيحة وتضرب فى عرض الجبل باحثه عن
موئل أو مجير

خيل اليها إن القدر يريد إلا أن يدفنها وعشييقها بين هذه الثلوج
رجعت اليه فألفته مسلوب الحول ذاهب اللب ممدداً يئن ويذفر من ألم الجراح
ووهنا خاضعة التعب وعذاب الأرق الطويل
جاست بقربه وشاع فيها اليأس واسلمت أمرها للقضاء ، يشكو أندريه فتؤاسيه .
ينام فتوقظه . وهو لفرط مغالبة النعاس وفرط الألم قد حال هيكلا عظيما ترف
فيه اللحظة بعد الأخرى أنفاس قصيرة متقطعة

وظلا هكذا ثلاثة أيام بلياليها . وفى صبيحة اليوم الرابع خارت قوى أندريه
وطغمت على عقله الحمى فجعل يهذى ويصيح . ثم انقبضت عضلات وجهه وشحب
لونه شحوبا أغبر مخيفا . وسرت رعدة هائلة فى جسده البالى فدب الرعب فى نفس
تيريز وأخذت بحبيدتها تهزه وتستنهضه وتخاطبه وتقويه فتحرك قليلا ورفع اليها
بصره الذاهل وناشدها — وخفقان فؤاده يكاد يخنق الالفاظ . على شفتيه — ان
تهود الى زوجها . الى ابنتها . الى أسرته . أن تعيش لهم بعد اذ يكون الموت
قد أجهز عليه

صاحت مستنكرة وقالت انها باقية هنا . ان ترحل . ان تنخل عنه واذا أصابه

الموت فستموت معه وفيما هي تتكلم أصدع الشاب زفرة كيلة طويلة واجتاح سحياه
الاصفرار واستوى بعض الشيء واندلعت عيناه ثم تداعى وقضى !
احتضنت بجثته وأخذت تصرخ وتبكي وتستغيث مدعورة مأخوذة مختبلة . ولما
لم يجد لها الصراخ نفعا سكنت فجأة واقربت من الجثة وهدقت اليها وجلست
بجوارها كعادتها ثم مدت أصابعها الضامرة المرمشة فأغمضت العينين الجاحظتين
وانحنت فقبلت الجبهة الباردة وظلت مكانها هادئة صامتة ذاهلة حتى الصباح !

وكان في أعلى الجبل شبه مصبح أو مستشفى يطلق عليه اسم مصبح سان برنار
فلما انصرمت تلك الايام الاربعة ولم ير الدليل أى أثر للعاشقين في المدينة ذهب
وأبلغ الامر رئيس المستشفى

أسرع الرئيس برفقة الدليل وطلبين كبيرين أطلقهما بين الجليد فجاسا خلال
الجبل وشما رائحة الجثة وجعلا يعويان عواء شديدا وما ان طرقت الاصوات
مسمع تيريز حتى أجابت عليها بأنين ممزق طويل أرشد الرئيس الى مكان الحادثة
تعلق بحبل وهبط اليها فرأى امرأة ملطخة الجسم بالدماء ممزقة الثوب نصف
عارية قد التصق شعرها المموج الغزير بالدم الباهت المتجمد على وجهها ويديها
وشاهد الجثة بقربها تذبذب منها رائحة كريهة وتسبح هي أيضا في بحيرة من الدم
المتجمد الحالك السواد

وأبصر الثلج يكاد يغمر الجثة ويخفى المرأة حتى ساقها فأوثقها بالحبل وأصعدها
وكذلك فعل برفيقها وما ان نقلت تيريز الى المستشفى حتى غابت عن صوابها
واحتواها اغماء عميق

أول ماخطر لها بعد ان استفاقت ورأت الممرضة بجوارها والطبيب يتنقل في
أنحاء الغرفة بخطى حذرة . وشبه الميت يلوح من خلال الأستار أن ماوقع لم يكن
غير قصاص أنزله بها الله جزاء لها على هجرها ابنتها وإيثارها لنها على خدمة الطفلة
البريئة التي لم تقترف أى ذنب

تمثلت لها الفتاة وحيدة فريدة لا أم تحنو عليها ولا عطف ولا عناية ولا حب
فتبدل احساسها وندمت أحر الندم على ما فرط منها . وجعلت تسائل نفسها ألم

يكن أولى بها انحدار لواعج قلبها وتوديع خيالات الغرام والرضى بحب زوجها
الصارم المتعطر في سبيل تربية ابنتها المعبودة جوليت
وذكرت ما طلبه اليها اندريه وهو يلفظ النفس الاخير . فسالت عبراتها حسرة
على عشيقها وزوجها وابنتها وما انتهت اليه
أدركت ان كل هذه الآلام ان تؤتي ثمارها الطيبة الا بالعودة العاجلة الى
جزيرة الاسرة مهما كلفها ذلك من عبودية واستبداد وذل
وخسيت أن تموت قبل أن ترى ابنتها وان يقف زوجها على ما وقع في نفسها
من تبدل عظيم
بل لقد سمت عواطفها الى حدانها اعترفت طلب الصفح من قرينها كي تتجه
الى العالم الآخر مظهرة القلب من كل شائبة
وتسلم الزوج من رئيس المستشفى برقية اخطره فيها بأن زوجه تموت وأنها
تلتبس منه المغفرة وتناشده اخلاصه ونزاهته الا ما جاء اليها ومعه الفتاة
اضطرب الرجل واستجاشت فيه الخيانة عوامل الثأر والقسوة والسكراميه
وطاد يمزق البرقية ويدعها بلا جواب ، ولكنه كان ما يزال يحب تيريز
لم تستطع خديعتها أن تمحو من فؤاده ذلك الهوى الدفين . لم تستطع
الايام أن تعدم تلك الصورة الفاتنة التي ما برحت تلازمه في احلامه وتملأ
فراغ ليااليه
ولد الحب في قلبه الشفقة . فقام الى امتهته فخرمها واعد حقائبه واصطحب
الفتاة وولى وجهه شطر تلك البلاد التي شاهدت مصرع خصمه وتكاد تودى
الآن بحياة من يحب
ما ان ترك القطار ووطئت قدماه أرض سويسرا حتى استرعاه مشهد جنازة
تسير فسأل من الذي قضى فاجابوه انه العاشق الشاب الذي تاه في جبل الجليد
. مات هنا بين أحضان عشيقته
ثار بغضه القديم ثانيا وكاد ينكص على عقبيه ، ولكن الرحمة تغلبت ، فجذب
الفتاة واندفع من فوره نحو المستشفى
دخل الحجرة فألقى زوجه الجميلة مسجاة على الفراش صفراء هزيلة بائسة

مقصودة الشمر تلف وجهها الأربعة وترسل عيناها المحمومتان نظرات
حائرة متوسلة

جثا عند حافة السرير وتناول يدها الناحلة وجعل يلثمها فامرت أصسابها
على رأسه وفاضت عيناها بالدموع . وفتح الباب فجاءة ودخلت جوليت فما ان
رأتها الأم حتى صاحت من أعماق قلبها صيحة فرح عظيمة واعتقت الفتاة
وجعلت تقبلها قبلاث منتشية تامة

وكان لابد للزوج من مواصلة اعماله فعاد الى باريس حبة الفتاة
ومرت ثلاثة أشهر وتيريز ما تزال في سويسرا تعالج في المستشفى وتتقدم
بخطى حثيثة نحو الشفاء

وحالما خرجت الى المدينة واستطاعت أن تشهد نور الشمس وتستعيد صباها
وقوتها أرسلت تستقدم زوجها فاجابها ان في وسعها الرجوع الى باريس والمكوث
في البيت مع ابنتها ووالدته المموز . فاصرت على بحيته . ورغبة منها في الهاب
حبه القديم لها واستعادة قلبه اليها مخلصا طيبا رحيا كما كان ، ذهبت الى بيتها في
ضاحية من ضواحي سويسرا حيث يقطن أهلها ولبثت في انتظار زوجها هناك .
وفي ذات يوم وتيريز خارجة من المهد تهوول مسرعة الى البيت رفعت رأسها
بغته واذا زوجها أمامها وجهها لوجه ولما ان أبصر الأزهار والرياحين والكروم
وتوسط الحديقة الغناء التي كانت تترجح فيها تيريز أيام ان عرفها فتاة طاهرة
ساحرة لهوبا ، استيقظ فيه غرامه الاول وادرك ما ترمى اليه وايقن من صحة توبتها .
فانحنى عليها وضمها بين ذراعيه وقبلها في فمها قبلة الحب والرحمة والغفران !